إبتهالات الحاج

(دراسة وترجمة)

سنابل للكتاب

5 شارع صبري أبو علم

باب اللوق - القاهرة

إبتهالات الحاج

دراسة وترجمة: عبدالهادي سعدون

الطبعة الأولى: تموز 2011

رقم الإيداع: 2011/19767

الترقيم الدولي: 977-5644-13-8

حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف: عبدالكريم سعدون

Tel:(20) 124102008

e-mail:sanabooks@maktoob.com

www.sanabil.net

عبدالهادي سعدون

إبتهالات الحاج

أو رحلة الموريسكي الأخير إلى مكة المكرمة

(دراسة وترجمة)

هذه هي الترجمة العربية الكاملة مع دراسة لكتاب:

Las coplas del peregrino de Puey Monzón (Viaje a la Meca, Siglo XVI)

Autor: Anónimo

Traducción y Estudio:

Abdul Hadi Sadoun

تم دعم طبع هذه الكتاب بالتعاون مع وزارة الثقافة الإسبانية

«Esta obra ha sido publicada con una subvención de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España».

تصدير

الغرض الأساس من هذا الكتاب هو تقديم نموذج أدبي غريب عن القارئ العربي عبر ترجمته من الإسبانية القديمة وإرجاعه لعربيته المعنية به، ألا هو مخطوط (أشعار أو أناشيد أو إبتهالات الحاج بوي مونثون Las Coplas del alhichante Puoy Monçón)، وهو نص شعري لأحد الموريسكيين المسلمين الإسبان، والذي كتبه نهاية القرن السادس عشر مع بدايات القرن السابع عشر وتركه لنا بدون إشارة لإسم مؤلفه، مما يعني مجهولية مؤلفه. والموريسكيون كما أصطلح على تسميتهم هم أولئك المسلمون الذين بقيوا تحت سلطة الممالك الكاثوليكية الإسبانية بعد سقوط آخر معاقل العرب فيها. هذا النص يسطر كذلك لنوع أدبي مهم وهو (أدب رحلة الحج) من قبل الموريسكيين المسلمين المتأخرين للديار الإسلامية المقدسة في مكة المكرمة، وهو إمتداد لرحلات أندلسيين و مغاربة و موريسكيين آخرين سبقوه وسطروا ما شهدوه في رحلتهم. عليه هو كتاب رحلة لمسلم من بقايا الإمبراطورية الإسلامية الذين ظلوا تحت السيطرة الإسبانية بعد طرد العرب من الأندلس، كذلك يعد وثيقة تاريخية فريدة من نوعها عن حياة و تفكير ومعتقدات هذه الشريحة المهمة من المسلمين.

إذا كنا سنتعرف على نموذج أدبي ليس بمستوى آداب الفترة الاندلسية الذهبية، إلا أننا بدين كبير للإطلاع وقراءة ونقل تلك الآداب المتأخرة للأندلسيين،

كنماذج تاريخية و إدراكية للظرف الذي عاشوه وكذلك للصعوبات الجمة التي واجهوها في حياتهم وكتاباتهم في ظل أكبر عمليات التقتيل و التهديد القسري وغياب الحريات العقائدية في القرون الوسطى. كما أن نص القصيدة الطويلة إبتهالات الحاج، يعد النص الأول والأخير لرحالة موريسكي مكتوب بالأعجمية (الإسبانية بحروف عربية) التي شاعت بين كتاب مسلمي إسبانيا المتأخرين، خاصة بعد إسترداد الملوك الكاثوليك للممالك الإسبانية التي كانت واقعة تحت السيطرة الإسلامية العربية فيما سمي بالأندلس والذي إستمر لأكثر من ثمانية قرون.

حاولنا عبر هذا الكتاب أن لا نكتفي بترجمة هذه القصيدة ـ الرحلة وما جرى فيها لهذا المؤلف الموريسكي وحسب، بل شرحنا أبياتها وعلقنا عليها بما أستطعنا من معلومات متوفرة، و احياناً أخرى زدنا عليها من المعلومات المتوفرة لدينا من كتب تاريخية او رحلات سابقة أو لاحقة لها، كما عرفنا ـ أحياناً بشكل مختصر وأحياناً أخرى بتوسع لأهم مظاهر الآداب الموريسكية الإسلامية وتتبعنا ظروفها ومنابع نشأتها وأهم ما سطره كتابها وعلمائها. كذلك سلطنا الضوء من خلال الشرح والتعليق على ظروف مسلمي تلك الفترة، آداب رحلة الحج وكتبها القليلة الواصلة لنا، كذلك ـ وهو الأهم ـ عن تلك الآداب المعروفة بالآلخميادية (الأعجمية) التي دونها مسلموا إسبانيا المتأخرون بما يعرف بنمط كتابي غريب من نوعه، وحصل مع الجالية المسلمة فقط، أي تدوين الكتابات باللغة الإسبانية مع الإحتفاظ بالحرف العربي كوسيلة تدوين، والذي سينتقل فيما بعد بأشكال أخرى في مناطق إسلامية أخرى أو واقعة تحت النفوذ الإسلامي.

هنا إذاً (إضافة لترجمة القصيدة ـ الرحلة) دراسة عن الآداب الموريسكية الإسلامية المعروفة عالمياً بالآداب الإلخميادية (الأعجمية) التي سطرها مسلمو إسبانيا في أعوام تعايشهم الأخيرة مع الإسبان أبناء المنطقة، وذلك بعد إنتصار الملوك الكاثوليك على آخر المعاقل العربية الإسلامية في غرناطة، و تثبيت قوتهم وسلطانهم في كل ربوع إسبانيا التي كانت تسمى حتى ذلك الوقت من قبل المؤرخين العرب بإسم الأندلس. بعد سقوط الأندلس في العام المعروف 1492 وتسلم الملوك الكاثوليك زمام البلاد وتوسعهم في أنحاء العالم قاطبة، لم يعن ذلك بالمرة إنتهاء تام لوجود المسلمين في تلك الأراضي واختفائهم كلياً، وهو خطأ شائع يقيس عليه أغلب المؤرخين العرب. ففي حقيقة الأمر كان علينا أن ننتظر حتى عام 1614، عام آخر مرسوم ملكي يأمر بالطرد النهائي لمسلمي إسبانيا، كي يمكننا القول عملياً بإنتهاء التواجد الإسلامي في إسبانيا.[1]

مع ذلك فهذا التاريخ لا يعني القطيعة التامة مع أي أثر لتواجد إسلامي في إسبانيا. العديد من العوائل والأفراد تخفوا بشكل وبآخر (على الرغم من الصعوبات الجمة والعقبات الكبيرة التي وضعتها السلطات الدينية والسياسية) بين السكان الإسبان لتبقى ذريتهم حتى اليوم وإن كان بصيغة اخرى أسهلها الدخول في الدين المسيحي أو التقرب من العوائل النافذة والزواج منهم أو البقاء على الهامش ضمن الحدود الإسبانية بين أراضيها الواسعة أو في

---

[1] أنظر الجدول التاريخي للتواجد العربي الإسلامي في إسبانيا بعد 1492 والذي أدرجناه في نهاية الكتاب من ضمن الملاحق الخاصة بالكتاب.

مناطقها الوعرة التي لا تصلها أية سلطة، كما عليه الإشارات المتعددة لنصوص وصلت لنا تؤكد إندماج العديد منهم مع القبائل الغجرية أو غير دائمة الإستقرار، التي عادة ما تعيش على الهامش وعند حدود أكثر من بلد أوربي مجاور.

إن لم تكن كل تلك الطرق بالوسائل الناجعة للبقاء في إسبانيا (لا ننسى أنهم أبناء إسبانيا الحقيقية أباً عن جد ولا يعرفون أرضاً أخرى غيرها)، ظل الأغلبية من موريسكيي إسبانيا غير بعيدين عن حدود بلدهم إسبانيا، فكانوا أن إختاروا طوعاً أو قسراً، البلدان الأقرب من حدود إسبانيا ونعني بذلك الجزائر و تونس، وإن جرب آخرون المغرب ومصر والقسطنطينية أيضاً. هناك دراسات عديدة تتحدث عن دخول العديد منهم إلى بلدان أوربية متسامحة آنذاك بالتعددية الدينية مثل ألمانيا وهولندا (لاحظوا الإشارة في إحدى فصول رواية ثربانتس المعنونة الدون كيشوت، وفيها حكاية الموريسكي ريكوته العائد بزي حاج مزيف كي يزور بلده إسبانيا، في حوار بديع ومؤثر).[2] بمراجعة تاريخية ولغوية درسها باحثون ومختصون بالموضوع، أثبتوا فيه أن الجمع الاكبر من ما نطلق عليهم تسمية الموريسكيين (خاصة في مناطق آراغون، كاتلونيا وبالنسية) كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن اللغة العربية ويمكن عد اللغات المحلية في المنطقة مثل الإسبانية أو الآراغونية لغاتهم الأم، مع معرفة سطحية باللغة

---

[2] أنظر فصل لقاء سانشو بالحجيج، في الجزء الأول من رواية دون كيشوت لـ ثربانتس، منشورات المدى، ترجمة: عبدالرحمن بدوي.

العربية لا تخرج عن نطاق التمسك الديني والإنتماء اللاشعوري بالعرب والمسلمين.

المرة الأولى التي قرأت فيه عن رحلة الحاج بوي مونثون لمكة والمخطوط المعنون (أناشيد أو إبتهالات الحاج) كان عبر مقالات متفرقة في كتب تاريخ الآداب الإسبانية الأولى لمختصين في هذا الحقل بدايات عقد التسعينات من القرن الماضي. ولكن الإشارة الأولى التي نبهتني لذلك كان في مقال للكاتب والروائي الإسباني المعروف خوان غويتسولو وفيه يدرس ويثير مسألة هذا النوع من الآداب، ويحث الدارسين الإسبان لمنحها حقها بكونها جزءاً لا يتجزء من الآداب الإسبانية، ولا يمكن فهم نشأة وأصول الآداب بصورة عامة بإقصائها بعيداً، لا سيما أن جل الآداب وإن كتبت بحرف عربي، فهي على أية حال إستخدمت الإسبانية ولهجاتها المختلفة كوسيلة للتواصل كما عليه نماذج أدبية أخرى أخذت حقها بالنشر والإهتمام.[3]

لم يخطر على بالي أنني سأقوم يوماً من الأيام بدراسة الآداب الإلخيمادية الإسلامية (الأعجمية الإسلامية) التي تركها الموريسكيون من بقايا المسلمين في إسبانيا، لأنني لم أتخصص بها، كما إن دراستها قد قطعت شوطاً مهماً في كل أنحاء العالم مما يجعل دراستها من قبلي متأخرة نوعاً ما، لا سيما وأنني قد

---

[3] المقال نفسه كتبه غويتسولو في فترة بعيدة ونشره في مجلة متخصصة، ليعيد إدراجه في كتابه:

Goytisolo, Juan: De la ceca a la Meca, Seix Barral, 1998.

تمعنت بالدراسات العديدة التي كتبت عنها سواء باللغة الإسبانية و الإنكليزية والفرنسية والتي لا مثيل لها في أبحاثنا العربية. بإطلاع بسيط رأيت أن جل الدرسات باللغة العربية عن هذا الأدب المهم لا تتجاوز نسبة ضئيلة من حجمه وأهميته الحقيقية. قد يعود ذلك لقلة المهتمين في هذا الأدب، أو لإعطائه أهمية أقل مما هو عليه حقيقة. لكن من الواجب القول إنني بزياراتي لتونس وبحثي عن موضوعة الموريسكيين عثرت بدراسات مهمة في هذا الجانب من قبل المختصين التوانسة، كما أن بحوثهم وكتبهم تلقى قبولاً في الأوساط الأكاديمية والمحافل العلمية. في هذا الجانب هناك مجلة معنية بهذا الشأن هي مجلة (الدراسات الأندلسية) الصادرة في العاصمة التونسية، وإن كانت أعدادها متفاوتة الجودة ودراساتها تتراوح ما بين البحوث الرصينة والإستعراضات البسيطة، مما أفقدها رصانتها و عدها مجلة محكمة يعتمد عليها الإعتماد الكامل. مع ذلك فإن أغلب دراسات الباحثين التوانسة تصب في مجرى الجاليات الموريسكية المطرودة و المستقرة في تونس (وهو حقل كبير وعلى غاية في الأهمية) والإنشغال الآخر يصب في الظروف التاريخية والسياسية والقانونية للموريسكيين، مع إنتباه أقل بالجانب الثقافي الأدبي.[4] كما إن الدراسات الأخرى في مصر والجزائر تكاد تكون معدومة من قبل المختصين المتأسبين، ما عدا البعض العام منها والتي نذكر بعضها في نهاية الكتاب من ضمن المصادر المطلع عليها. ليس لي دراية كبيرة بالدراسات الموريسكية

---

[4] أنظر صفحة الأنترنيت الخاصة بمويسكيي تونس وهي:
http://moriscostunez.blogspot.com

للباحثين الأتراك، وإن كنت أدرك أهميتها وجهودها الكبيرة في هذا الشأن لا سيما وأن جالية موريسكية كبيرة من المسلمين واليهود قد استقروا في مدن متعددة أهمها أسطمبول في أزمنة تالية.

يقف المتلقي العربي المثقف إزاء نقص هائل عن هذه الآداب المنتمية لنا بقدر ما هي منتمية لبيئتها الإسبانية، لا سيما إن العديد من مخطوطاتها وكتبها الدينية والثقافية في الشعائر والعادات والتقاليد والحكاية والشعر، مازال مجهولاً لم ينقل للغة العربية ولم تسلط عليه الأضواء بشكل يعيد لهذه الجالية الكبيرة التي عاشت وأستقرت في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا ـ الأندلس) لآلاف السنين قبل أن تواجه قدرها المأساوي بالترهيب والقتل والتشرد والطرد من قبل محاكم التفتيش الإسبانية البغيضة بتحريض أكبر من هيئاتها الكنسية ذات النفوذ الواسع آنذاك وبتنفيذ من قبل قياداتها من الملوك الكاثوليك الأجانب الذين قدموا من خارج شبه الجزيرة الإيبيرية ليتوجوا أنفسهم ملوكاً ويطردوا جزءاً مهماً وأسايا من مجتمع تلك الأرض في واقعة من أقسى وافظع مظاهر الظلم على إمتداد التاريخ البشري.

بقي أن أذكر إنني قد حاولت قدر الإمكان تصويب الأغلاط الإسبانية الشائعة في نقل المخطوط من الألخيميادية للإسبانية، وبدورنا للعربية، أعلم أن المهمة ليست بالسهلة لطالما أن القراءات مختلفة وكل قراءة تأتي بما ترى و تقر، ولكن قربي من اللغة العربية ومعرفتي بالإسبانية ساعدني في إنجاز هذه المهمة بالشكل الذي أعتقده مفيداً للكتاب وللنص نفسه. أجدني هنا مجبراً على التأكيد بضرورة الإطلاع الأوسع على هذه الآداب الإسلامية العربية الإسبانية وفهمها ضمن سياقها وظروف نشأتها و علاقاتها بالمكان والزمن الذي كتبت

به، أقول هذا حتى لا يحاكم النص بكونه نصاً ناقصاً أو ضعيفاً قياساً لنصوص أخرى سابقة أو تالية، فالواقع أن قصيدة رحلة الحاج التي نقدمها هنا بالعربية، لم يتقصد صاحبها الحاج المجهول من كتابتها وفق أسلوب أدبي يضاهي به آداب الفترة الأندلسية، بل كان غايته الرئيسية أن يجعلنا نشعر ونحن نقرأ له وهو يسطر خبراته و مشاهداته، بإنه إنما شاء أن يترك أثره لمنْ تبقى من أبناء جلدته في إسبانيا، ولشدهم على التصبر ولتوعيتهم بما لم يروه وحتماً لينقل لهم صورة إخوانهم المسلمين في بلدان أخرى ممن لن تسنح الفرصة لهم أن يعيشوا التجربة ذاتها.

إن قصيدة إبتهالات الحاج الطويلة المؤرخة لمراحل رحلته من بلدته بوي مونثون حتى مكة وعودته بعد ذلك، إنما تعد برأيي شخصياً وثيقة مهمة ضمن ادب المقاومة الإسلامية تحت حكم محاكم التفتيش الإسبانية القروسطية الجائرة، بسبب من موضوعتها الممنوعة منعاً قاطعاً آنذاك وطوال قرون كاملة، وكذلك لظروف كتابتها السرية و طرق الحفاظ عليها جيلاً بعد آخر حتى تصل لنا في الوقت الحاضر. إن طريقة كتابتها وحفظها لنا، كما عليه موضوعتها الإسلامية، والمخاطرة بالكشف عن السفر لأماكن العبادة الإسلامية المقدسة من قبل موريسكي يعيش تحت سلطة محاكم التفتيش وكذلك عدم تفريطه بالعودة من جديد للأرض الوحيدة التي يعرفها كمكان لمعيشته وبلد لأبنائه مثلما كان لآبائه، كلها أمور تدخل في حيز كتابة ضمن نطاق أدب مقاومة وتحريض و تنبيه وتذكير أيضاً وهو ما نعتقده أنه الهدف الأساس والأخير من كتابة ورحلة الموريسكي المجهول.

الوثيقة (قصيدة إبتهالات الحاج) لم تعن بإية دراسة عربية ولا نقل جزئي أو كلي للغة العربية، كما أن الإشارات الدالة عليها قليلة جداً في الدراسات المهتمة بالموضوعة الموريسكية، مما يجعل هدفنا تقديمها هنا للقارئ والمختص، هدفاً ضرورياً وعاجلاً، لا سيما وأنها كانت غائبة عنا لأكثر من قرن كامل (بعد تاريخ إكتشافها نهاية القرن التاسع عشر) ولقرون طويلة من زمن سقوط الأندلس حتى اليوم. إن أي سهو أو خطأ من طرفي أتمنى أن يسامحني عليه القارئ والمختص، وأن يتلقاه كإعتراف بجهلي ونقص في جهدي، ذلك أن جل ما أردته هو النقل الأمين التام الصحيح لما خطته يد ذلك الموريسكي المجهول وإلقاء الضوء عليها خدمة للأدب والعلم ولا غاية أخرى أرجوها من ذلك. بقي أن أن أنهي التقديم بالقول إن هذه الوثيقة لم يكن لها أن تنشر بالعربية لولا المساعدة القيمة التي قدمتها لنا مؤسسة الكتب والأرشيف في وزارة الثقافة الإسبانية، والتي نتمنى لو تكون مؤسساتنا العربية بنفس المسؤولية والحرص بنشر هذا التراث الإنساني العالمي.

المحقق ـ المترجم

مدريد ـ بيروت 2010

1

الآداب الإسلامية الموريسكية المتأخرة

الواقع الأدبي الإسلامي في ظل محاكم التفتيش

لقد عاش العرب المسلمون طوال أكثر من ثمانية قرون في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا) والتي أطلقوا عليها إسم الأندلس. إن فترة طويلة كهذه أنتجت واحدة من الحضارات والثقافات المتنورة التي لم يعثر على مثيل لها في كل أرجاء أوربا. كما أن ظروف هذه الإمبراطورية الإسلامية منذ دخولها في عام 711 و طردها والإنتصار عليها من قبل الملوك الكاثوليك في عام 1492، كانت قد مرت بمثيلاتها من الإمبراطوريات السابقة من مجد وإزدهار لتصل لقمة التدهور والضعف والتفكك وبالتالي نهايتها الحتمية. لسنا هنا بإعادة سرد لتاريخ الحضور العربي الإسلامي في الأندلس، فهناك العديد من الكتب والمصادر بالعربية ولغات أخرى ما يغني عن هذه المسألة، ولكننا نشير هنا إلى ما يهمنا في هذه المسألة ونعني بها الآداب والجوانب الثقافية بصورة عامة.[5]

لقد نقل المسلمون العرب إلى الأندلس كل علوم ومعارف وآداب الشرق معهم، بل تفننوا فيها وذاع صيتهم، واصبحوا ينافسون مماثليهم المشرقيين في فنونها.

---

[5] المصادر العربية في تاريخ الأندلس منذ التأسيس حتى السقوط كثيرة لا تحصى ومعروفة وبالتالي لن نذكرها هنا، يهمنا أن نشير هنا بشكل خاص للجهود الغربية في هذا المجال ومنها لكتاب الباحثة الألمانية زيغريد هونكه المعنون: شمس العرب تسطع على الغرب، وكذلك كتاب الباحث مونتغمري وات المعنون: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، كما عليه كتب الإسبانيين بيرنيت و إبلاثا وغيرهما الكثير، مما ترجم للعربية أو ما يزال.

بل أنهم حاولوا ونجحوا في محاولاتهم بإيجاد صوت خاص بهم يميزهم عن أبناء عمومتهم المشرقيين، فكانوا أن أضافوا وابتكروا من الفنون والآداب ما لصق بهم واصبح قريناً بهم متى ما ذكر هذا النوع من الفنون وتلك الصنعة من الأدب. لقد إزدهرت فنون الشعر خاصة في الأندلس وبرع شعراؤه بالتوسع في مجال الموشحات التي تنسب لهم فيها الريادة والسبق، بل أن العديد من مؤرخي المشرق عدها سمة أندلسية خالصة بابنائه وأدبائه. إن ذكر أسماء قليلة هنا مثل إبن زيدون، إبن عباد، إبن حزم وإبن بسام وغيرهم الكثير سيؤكد لنا عظمة و روعة هذه الفنون الشعرية وآدابها. كما أنهم لم يتوقفوا عند ذلك بل زادوا فيها بفن لصيق بهم وبقريحتهم الشعرية ألا هو فن الزجل الذي وصل قمته على يد الأندلسي إبن قزمان. يمكننا فهم كل هذه التحولات نتيجة التواصل مع الثقافات الأخرى في المنطقة و إختلافها الكلي عن المشرق، بحيث أتاح لها التطوير في هذا المجال الأدبي الذي يتطلب معرفة وتقارباً بلغات ومفاهيم وثقافات أخرى جديدة. والبيئة الأندلسية في شبه الجزيرة الإيبيرية أتاحت كل هذا. فالزجل في غايته الرئيسية هو التقرب من لغة الشارع وإستغلال كل الوسائل الممكنة للعامة بالوصول عن طريق الشعر لذائقتهم و رغباتهم. نعلم اليوم من خلال البحوث الجديدة إن المشرق قد غص بمثل هذه التحولات التقريبية ما بين الأدب المثقف والعامة، ولكنها مع ذلك بقيت محاولات خجولة لم تتطور أو لم تصل لتنافس الأدب الرسمي المثقف مثلما كان عليه في الأندلس، أو على الأقل بقيت ضمن الإطار الشعبي ولم تخرج للعموم الأوسع.

يمكننا إعتبار الزجل أولى المحاولات في الدمج ما بين الشعرية العربية والذائقة العامة بكل ما فيها من عادات ثقافية و لغات ولهجات جديدة تندمج إندماجاً متماهياً لتشكل نمطاً شعرياً وأدبياً خاصاً. من هنا ليس غريباً أن يرى العديد من مؤرخي الأدب في الزجل كنوع شعري شعبي ولد من وإلى ذائقة العامة في الغرب الأندلسي. هذا النمط الأدبي بتطوره و مرور السنين سيتيح المجال لنوع أدبي لاحق به وبالموشحات يسمى بالخرجات. إن (الخرجة) نشأت كملحق وذيل بالموشح الأندلسي، خلاصتها إستخدام شعبي تام في النظم وفي اللغة. هذه (الخرجات) ستجد لنفسها حيزاً للإنفراد كي تصبح فناً خالصاً بذاته ويصبح لها شعرائها المتخصصون بها سواء أولئك الشعراء العرب منهم واليهود ضمن حيز الآداب الأندلسية. على الرغم من أن الخرجات نشأت كفن شعبي يردده العامة من النساء والأطفال والسكارى والمهمشون على رأي المؤرخين، إلا أنه سيصبح بعد عقود أدباً وفناً شعرياً للخاصة ويدخل بسهولة في المنتديات الثقافية ومسارح الأدب و دواوين السادة والخلفاء على وجه سواء. وإذا ما كان فن الخرجات مجهول المؤلف في أغلبه خاصة في فتراته الأولى، إلا أن كتب التاريخ قد حفظت لنا العديد من نماذجه مذيلة بأسماء شعراء معروفين.[6]

أهمية الخرجات تكمن في كونها الخطوة الأولى للمزج ودمج لهجات المنطقة الأخرى في الشعرية العربية. من هنا نستطيع قراءة خرجات مدجنة، عربية

---

[6] للمزيد أنظر كتاب (الموشحات الأندلسية لـ محمد زكريا عناني، كتب المعرفة، 31، 1980.)

اللغة مليئة بمفردات أعجمية من لغات المنطقة خاصة الرومانثية الوليدة (الإسبانية فيما بعد) والبرتغالية. وهذا يعني إن الفنون الشعرية العربية في الأندلس قد تنبهت لأهمية الإستفادة من المحيط المجاور لها، كما أنها تنبهت بالضرورة لإختلاف في ذائقة وفهم الأجيال الجديدة، ولم يخف عليها كذلك معضلات المجتمع الجديد من حيث الإبتعاد الكبير عن اللغة العربية الكلاسيكية وإحلال هذه اللغات الخليط الجديدة في فنونها الأدبية.

ما نريد التأكيد عليه هنا بأن الأدباء والمجتمع الأندلسي قد إبتعد بأشواط كبيرة عن اللغة العربية الفصحى، ولم يعد بقادر على التجاوب مع شروطها، لذلك لجأ بذكاء نحو اللغة البديل المفهومة والمتحدث بها في المنطقة ككل. لا يعني هذا إختفاء كبير للغة العربية، بقدر ما يعني إن الحاجة قد الجأتهم للنظر للأمور بشكل واقعي وميسر. من خلال الإطلاع على النصوص الأدبية والدينية المتأخرة سندرك من خلالها إن العربية المستخدمة في الكتب لم تعد بتلك اللغة المثقفة، كما أن فهمهم لها قد بدأ يتدهور ويدخلهم في سوء تفسير وعدم إدراك للمغزى الحقيقي للنص، مما يجعلنا ندرك تماماً إن الحاجة لهذه اللغة البديل هي ضرورة لا بد منها ولا غنى لهم عنها.

إن إضمحلال النفوذ العربي الإسلامي في بلاد الاندلس قد بدأ يشمل تقريباً كل أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية، وبالتالي ترك المجال للإمبراطورية الإسبانية الكاثوليكية أن تحل بكل نفوذها وقوتها في عموم البلاد. لا يعني هذا بالضرورة إختفاء وجود المسلمين (و بؤر طوائفهم وحركاتهم المناهضة) نهائياً بقدر ما أصبح تابعاً للمالك الكاثوليكية الوليدة وما يعنيه أيضاً إتباع تعاليمه والإنقياد لأوامره. بتتابع الوقت تدرجت أوضاع المسلمين في المنطقة

من سيء إلى اسوأ، فبعد أن كانوا بشكل وبآخر يمارسون شعائرهم ولغتهم العربية مقابل الولاء الكامل للدولة الإسبانية الوليدة، بدأوا تدريجياً يدخلون في عنق زجاجة محاكم التفتيش والقوانين الجائرة لكهنتها. وكان أن وصلوا مع بدايات القرن السادس عشر لفقد كل إمتياز ولم يعد لهم الحرية بإعتناق مذهبهم ولا ممارسة الشعائر وبالتالي منع إستخدام اللغة العربية والكتابة فيها. بل أن أقل شك ممكن كان يقود مسلموا إسبانيا في تلك الأزمنة ـ تحت مظلة محاكم التفتيش الكاثوليكية البغيضة ـ إلى الحرق والموت أو النفي القطعي. من هنا تحديداً وبعد مرور أزمنة طويلة، بدأت الشعوب الموريسكية[7] القاطنة تحت سيطرة الممالك الإسبانية الكاثوليكية تفقد كل صلة بلغة أجدادها ودينها، وأصبحت ممارساتهم الدينية أو اللغوية ممارسة سرية كانت تودي بأصحابها عند إكتشاف أمرهم إلى المحرقة أيضاً. المحرقة لم تأكل الأجساد البريئة فحسب، بل قضت تماماً على كل أثر عربي، فالتهمت محارق محاكم التفتيش الآثار العربية والإسلامية المكتوبة بالعربية إلتهاماً شرساً، بحيث لم يتبق لنا منه إلا القليل، وما وصلنا منه يشير بشكل كبير لعظمته و تنوعه.

في ضوء كل تلك الظروف والممارسات القسرية بالضد من المجتمع الإسلامي في بلاد الأندلس، لم يعد بيد أولئك البشر غير الرضوخ والدخول (طوعاً أو قسراً) في المجتمع والدين المسيحي، وتم إطلاق تسمية المسيحي الجديد عليهم، وهذه التسمية هي نفسها التي ستودي بحياة العديد منهم في

---

[7] لفظة الموريسكيون (Los Moriscos) تطلق على مسلمي الأندلس الذين بقيوا يعيشون في إسبانيا تحت الحكم الكاثوليكي بعد سقوط دولة الإسلام رسمياً عام 1492، من هنا سنستخدم هذه التسمية على مدى حقول البحث.

أزمنة تالية، أما بقتلهم بحجج مختلفة لعل أبسطها التحريض والمعارضة، أو النفي والطرد من شبه الجزيرة الإسبانية إلى بلاد أفريقيا، كما عليه العوائل العديدة التي وصلت منتصف وبدايات القرن السادس عشر إلى المغرب والجزائر وتونس والقسطنطينة وغيرها، هرباً من جور محاكم التفتيش.

طوال تلك الفترة لم يحفظ لنا الشعب المسلم ذاك تحت الوصاية الكاثوليكية أي شيء قيم بقيمة ما تركه لنا آجدادهم الأندلسيين. مع هذا فهم في الواقع كانوا يدونون ويكتبون ويتجادولون في شؤون أمورهم، وإن لم يكن باللغة العربية بل باللغة الإسبانية أو بلغات البلد ولهجاته الرومانثية التي ستتوحد فيما بعد ضمن حيز اللغة الإسبانية، بحيث تركوا لنا إرثاً ثقافياً يشير ويؤرخ لفترتهم. داخل هذا الإرث الذي تركوه لنا، هناك جزء كبير وصل لنا متأخراً (تم اكتشافه نهاية القرن التاسع عشر فحسب!) كانوا قد كتبوه بممارسة كتابية جديدة، سرية وغير مفهومة لآخرين سواهم.

هذه الكتابات التي وصلتنا في مختلف شؤون الحياة والدين والأدب دونوها بلغة إسبانية عامية مستخدمين الحرف العربي بكتابتها، ومن هنا أصطلح على هذه الكتابات والآداب الجديدة بإسم الآداب الآلخيميادية (الأعجمية) والتي على ما يبدو أنها كانت ممارسة شائعة بينهم حفظاً لخصوصيتهم وسرية ما يتداولون. هذه الآداب الأعجمية شكلت مصدراً جديداً لكل باحثي الآداب الأندلسية والإسبانية لمعرفة ظروف وممارسات تلك المجتمعات الإسلامية السرية. منذ لحظة إكتشاف هذه الكنوز بالمصادفة البحتة نهاية القرن التاسع عشر، لم تتوقف الدراسات فيها وعنها طوال القرن العشرين، ليتشكل لدينا حقل جديد في الدراسات الإسلامية، ويوماً بعد آخر نطلع على إصدار جديد

ودراسة معينة عن كتاب فيها أو ظاهرة ما. مخطوطنا (إبتهالات الحاج) الذي نقدمه هنا هو واحد من هذه النصوص القليلة التي وصلتنا مكتوبة شعراً بالأعجمية الإسبانية لفظاً والعربية حرفاً.

الآداب الموريسكية الألخميادية (الأعجمية)

كما ذكرنا سلفاً فإن الآداب الإسلامية الموريسكية في فتراتها المتأخرة في شبه الجزيرة الإيبيرية لم تنته وتختف نهائياً بانتهاء فترة الحكم العربي في الأندلس، بل إن الآداب الألخميادية (الأعجمية) حلت محلها وإن لم تضاهيها في الجودة والتنوع والتفوق، إلا أنها تبقى ممثل حقيقي عنهم وعن حقبتهم تلك بكل ملابساتها ومآسيها وتواريخها المعروفة. من هنا تقف إزاء الأخطاء الفادحة التي ارتكبها العديد من الباحثين ـ خاصة العرب منهم ـ المختصين بالأداب الأندلسية، إذ أنهم توقفوا عند عام 1492 معتبرين ذلك التاريخ تاريخاً لنهاية التواجد العربي مثله إنطفاء نتاج الآداب والفنون العربية في المنطقة، خاصة بعد إستتباب الوضع لصالح الممالك الكاثوليكية على أغلب مناطق إسبانيا. من الصائب ان نقول إن آداب ما بعد 1492 ليست بمستوى آداب الفترات الذهبية الأندلسية وهذا شيء منطقي وقد تعرضت لها كل آداب العالم قاطبة، كما أنها لم تكن بمثل تنوعها وجدوتها، ولكن أن نتوقف عندها كآداب أنتهت وأنقضت وماتت، فهذا شيء ليس له من الواقع بصلة.

نعلم اليوم علم اليقين بأن آداب تلك الأقليات المسلمة كانت مستمرة سواء في داخل شبه الجزيرة الإيبيرية، بل وحتى خارجها مما حمله معهم الأجيال العديدة المطرودة من بيوتها والملتجئة لدول الجوار بالأخص المنطقة المغربية ودولها المجاورة لإسبانيا. الحق إن نتاجهم الادبي في كل أصنافه لم ينقطع إنقطاعاً تماماً، ولكننا من الممكن أن نقول أنه قد تعرض لتحولات وهزات

مختلفة نتيجة لأوضاعهم الجديدة وصراعهم مع المستوطن الجديد المتمثل بالممالك الكاثوليكية ومن يقف من ورائها من محاكم تفتيش القرون الوسطى. عليه واكبت آدابهم مرحلة الصراع ذاك، واصبحت ممثلة حقيقية له ولتجسد من ضمن أساليبها وأجناسها المختلفة عما كان يعتمر في دواخلها وما كانت تعانيه وتعيشه، بحيث يمكن عد آدابهم وكتاباتهم المكتشفة بمثابة أوراق يوميات لكل ما عانوه وفكروا واعتقدوا به. كل هذا بالطبع لم يتم باللغة العربية كما يمكن تصور ذلك، بل بلغة المحتل الجديد، إذ لم يكونوا بعيدين عنه وعن بيئته ولغته، بل أن الكثير منهم كان إسبانياً لغة ووطناً أكثر من الإسبان الجدد المنتمين لأكثر من عرق وجنسية ووطن. لقد شكلت كتابات الموريسكين المسلمين المتأخرين وثائق أدبية ولغوية هامة، وهي بدورها قد عانت من التنقلات والتحولات مثلها كمثل الآداب الإسبانية في تلك الفترة.

لا يمكن الطلب بالطبع من أقلية دينية ملاحقة ومراقبة من قبل محاكم التفتيش أن تعبر عن نفسها بكل حرية وأن تشارك في النشاطات الثقافية بكل تجديد وثقل مثل غيرها من كتاب الأقلية العظمى، لذا أتجهت بكل ثقلها (وبشكل سري في معظم الأحيان) للحفاظ على ما تبقى لها من إرث إسلامي وعربي، وبالتالي الحفاظ عليه وإيجاد الوسائل الممكنة وبمتناول اليد للتعريف بأنفسهم أو الحفاظ على ما تبقى في الذاكرة والكتب القليلة التي بحوزتهم. من هنا أنبثقت جدوى العثور على أدب إسلامي جديد ممثل لهم ويعبر عن كل أحلامهم وتطلعاتهم ورغباتهم مع ما يمت بصلة لكل إرث أجدادهم من مسلمي الأندلس. هذا الأدب ذو الصبغة الدينية الإسلامية يمكن عده لظروف نشأته و الغرض منه كممثل لنوع أدبي مقاوم لا غبار عليه. أدب مكتوب باللغة

الإسبانية ولهجات المنطقة الأخرى وكان إن أبتكروا كتابتها بالحرف العربي لإقترابه منهم وتمثيلاً عاطفياً عنهم.

من هذا المنطق ولدت الحاجة لهذه الكتابات الخاصة التي عرفت فيما بعد بإسم الآداب الأعجمية (الآلخميادية) وهي وليد شرعي خاص بأبناء إسبانيا من الموريسكيين المتأخرين الذين عاشوا سنيها الأخيرة بعد إختفاء التواجد العربي رسمياً عن إسبانيا، وهي إبتكار خاص بهذه الأقلية دون غيرها، ولعلها الأولى من نوعها التي دونت لغة لاتينية (الإسبانية تحديداً) بحروف عربية. إثناء ذلك كان أعيان الجالية المعروفين يحاولون بشتى الوسائل الوصول لتسوية معينة مع السلطات تقيهم مخاطر التشتيت والترحيل. لا ننسى إن الجالية كبيرة مقدرة بمئات الآلاف من البشر، قرى وضيع كاملة كان يقطنها المسلمون، لذا حاولوا تأجيل ترحيلهم مقابل الإلتماس والترجي أو دفع مبالغ طائلة، وكانت أغلب القرارات تمنحهم الحق لفترة قصيرة، ليعاد التذكير بمسألة طردهم في قرار جديد من قبل الملك وبتأثير من الكهنة المتنفذين في البلاط والمترأسين لمحاكم التفتيش، حتى قرار الطرد النهائي مع بدايات القرن السابع عشر (1610). خلال ذلك الوضع العسير لم يكن أمام هذه الجالية المسلمة الكبيرة، خاصة علمائهم وأدبائهم، على التوصل لحل يمكنهم من وضع كل عصارة أفكارهم وتآليفهم في مدونات سرية غير متداولة أو معروفة من قبل السلطات الحاكمة، ألا هي ما نطلق عليه المدونات والكتابات بالأعجمية.

لقد ظل كما ذكرنا سابقاً هذا الأدب مجهولاً ولا يعرف عنه إلا القليل حتى نهاية القرن التاسع عشر (1884 تحديداً)، ولم يكتشف الباحثون عن سره ولا حل رموز لغته الغريبة حتى منتصف القرن العشرين. بعد ذلك التاريخ فاقت

الدراسات بلغات مختلفة، على الأغلب الأوربية منها، الآلاف، وتم تصنيفها وتبويبها وإرجاع أغلبها إن لم تكن كلها للغة الإسبانية ومن ثم ترجمتها للغات العالم قاطبة.[8] لا بد من الذكر هنا مسألة جهلنا وقلة كتاباتنا نحن العرب في هذا الحقل، وكأننا غير معنيين بتاتاً بالأمر، وكأن هذه الآداب العربية الإسلامية الصبغة لا علاقة لها بنا وبعوالمنا وآدابنا. التأكيد من طرفنا إن الكتابات والترجمات منها للغتنا العربية قليلة أو تكاد تكون معدومة.[9]

المصادفة هي الوحيدة التي أخرجت للنور هذه المخطوطات المكتوبة من قبل أولئك الموريسكيين، إذ أن العثور عليها كان نتيجة إنهيار جدار في بيت عتيق في قرية المونائيد دي لا سييرا القريبة من مدينة سرقسطة في منطقة شمال شرقي إسبانيا ضمن مقاطعة آراغون. كانت هناك مجموعة من العمال في عام 1884 يقومون بتهديم أبنية متكونة من عدة بيوت ونقل أنقاضها لغرض الشروع ببناء جديد. وفي واحدة من غرف هذا البناء وبعد سقوط أحد الجدران الوسطية ما بين غرفتين تم إكتشاف كم هائل من الكتب مخبئة ما بين جدار الغرفة هذه وجدار مزيف آخر يليه تم بنائه لغرض التمويه و إخفاء هذه الكتب المخطوطة الممنوعة. خلف هذا الجدار المزيف والذي عد كمخبأ ومستودع للكتب من قبل أحد الموريسكين كي لا يكتشف أمره ويحاكم، ومنها نستقي

ينظر الكشاف العام للمخطوطات الموريسكية الأعجمية الكتابة والذي وضعه المؤرخ والباحث الإسباني فوينتس غولمس.[8]

واحدة من الكتب القليلة التي تناولت الموضوعة وترجمت منها هو كتاب الباحث صلاح فضل المعنون (المغازي الموريسكية) الذي يتناول فيه جانب مهم من هذه الآداب والتي نعني بها الأساطير والحكايات الدينية المتداولة بينهم.[9]

فكرة أن يكون العديد من الموريسكيين الذين بقيوا على الأراضي الإسبانية أو طردوا منها قد خبأوا كنوزهم الثمينة ومنها الأهم، كتبهم الأدبية والعلمية، في جانب سري من بيوتهم وأراضيهم، وحالة العثور على هذا الكنز هي حالة واضحة ولا يمكننا إستبعادها كمثال لأمثلة أخرى وإن لم يتم إكتشافها إلى اليوم.

المجموعة الكبيرة من هذه الكتب تم حفظها بعد أن إشتراها أحد الكهنة الذي كان يمر بالمصادفة من المكان، وبعد أن عرف قيمتها، ووجد العمال والأطفال يمزقونها ويحرقونها جهلاً منهم بقيمتها وما تضم. هذا الكاهن كان على معرفة قليلة بالعربية، وكان أن إشترى منها مجلدين مما حدا بالعمال (بعد أن مزقوا ودمروا أغلبها) بالعودة إلى المكان والعثور على ما تبقى منها ليبيعوها للمهتمين الآخرين. عندما سمع مراسل أكاديمية التاريخ في مدينة سرقسطة بالحادثة، توجه للمكان وأشترى من العمال وعوائل الأولاد كل ما طالته أياديهم، وبلغ ما أنقذه هو والمهتمين من أمثاله ما يقرب الـ مائة واربعين مخطوطاً، خمسون مخطوطة كاملة والبقية أجزاء من كتب ومجلدات متناثرة، هذا بعد أن مزقت الأيادي وطالت النار أكثر من ثمانين مجلداً أخرى غيرها. بعد ذلك أستغرق أعضاء جمعية التاريخ بتصنيفها وتبويبها وفك طلاسم حروفها وكتاباتها أكثر من 27 عاماً، لينشر التقرير الكامل عنها في عام 1910. على الرغم من هذه الكنوز القيمة، إلا أننا ننبه هنا إن هذه المكتبة التي تم العثور عليها تعود لرجل بسيط وليس لمثقف موسوعي كبير، مما يعني أنها ليست كل ما تركه الموريسكيون، إذ إن في مثل حالته، لم يكن بإمكانه الحصول والمحافظة على كل كتب تلك الفترة المكتوبة بالأعجمية. مع ذلك

كانت مجموعة منتقاة رائعة التجليد ومحفوظة بشكل جيد ومكتوبة بحرف عربي واضح.

بعد أن تم تصنيفها تم التعرف على محتواها، وهي إن جل آداب المسلمين المكتوبة كانت لا تخرج عن سياق الدين والتعاليم الدينية، ومع ذلك هناك نصوص في مواد أدبية وثقافية عامة. إن القسم الديني منه وما هو في حكمه يشتمل ترجمات القرآن الكريم إلى الإسبانية والأعجمية ومنها أيضاً تفسيرات ودراسات للسنة النبوية، ومنها أيضاً وهي كثيرة مجادلات دينية ضد النصرانية للدفاع عن الإسلام والذود عن حماه و معتقداته. أما القسم الأدبي فقد ضم أشعاراً نظمت لأغراض مختلفة، وهناك ما يدخل في باب السرد والحكاية والأسطورة والملحمة وفن التراسل أو أدب الرحلة كما عليه مخطوطنا إبتهالات الحاج، وهي على أية حال تصب أغلبها في الشأن الديني أو تتناول موضوعة ما فيه. من هذه التصانيف، بدأ الباحثون وضع كتبهم وتراجمهم، وتم التعرف عليها بشكل دقيق، وإن لم تخدم الكثير من الكتابات بمعرفة أحوالهم الإجتماعية، إلا أنها منحتنا فكرة موسعة عن طبيعة معتقداتهم وشعائرهم وإهتماماتهم الدينية مثل مصنفات من يدعى (فتى آريبالو)، وكذلك التوصل لطرق تفكيرهم ومحاولاتهم فهم الأساطير والحكايات المتداولة بينهم كما عليه حكايات فروسية وتمجيد بشخص الإمام علي وشخصيات أخرى، يضاف له ذائقتهم الأدبية الشعرية على ضوء ما وصلنا من أشعارهم ونظمهم، والتي من بينها نماذج أدبية صريحة لأسماء معروفة مثل الشاعر محمد ربضان، الخرتوش أو خوان ألفونسو، التقرب من قصائد مدهشة مثل (قصيدة يوسف) أو ما ننقله هنا عن الرحلة الشعرية (إبتهالات الحاج) التي وصلتنا

كاملة والتي قام بها شاعر مجهول الهوية يصف فيها رحلته ومناقبه متوجهاً من بلده إسبانيا ليلتحق بقافلة الحج ليؤدي شعائر الحج كي يرجع بعدها لبلدته، مدوناً فيها كل ما شعر به وما رأته عيناه طوال الطريق.

قبل أن ننهي هذا الجزء لا بد من العودة لمسألة هذا النوع من الكتابة المبتكرة من قبل هؤلاء الموريسكيون؟ لماذا إبتكروه، ما أسبابه، ولماذا الكتابة الإسبانية بالحرف العربي؟

تساؤلات متعددة وكلها لها أجوبة قد تكون ناقصة، ولكنها في رأينا وافية نوعاً ما. ذكرنا ما تعرض له الموريسكيين من مراقبة وإضطهاد محاكم التفتيش ورجالها بالتعبير عن معتقداتها الإسلامية أو الإختلاف معهم، وهذا بحد ذاته سبباً وجيهاً يدعو الموريسكيون للبحث عن حلول أخرى لن يفكها بسهولة عيون محاكم التفتيش. مع ذلك يبدو لنا سبباً من ضمن أسباب الوضع ولا يحل لنا اللغز لطالما أن محاكم التفتيش في فترات متأخرة قد منعت حتى تداول الكتب العربية أو أي مدونة تحتوي الحرف العربي، بعيداً عن محتواه دينياً كان ام لا، مما يعني أن الكتابة الأعجمية بحد ذاتها خطراً يوقع صاحبها بشرك المحاكم. ولكن مع ذلك لا بد أن نجعله سبباً من بين الأسباب. الشيء الآخر، بإعتراف الموريسكي نفسه، وبأكثر من شهادة تاريخية تم العثور عليها، بجهل أغلبيتهم باللغة العربية، مما ألجأهم للكتابة والحديث بالإسبانية كما عليه العديد من آثارهم المكتوبة بهذه اللغة. كما وصلتنا العديد من الكتب الأعجمية مع ترجمة في حواشيها بالإسبانية تترجم المعنى الأعجمي، مما يدل على جهل كبير باللغة العربية، ناهيك عن الجهل الأكبر بتعاليم الإسلام والقرآن الكريم أو

الأحاديث النبوية، وهذه لدينا منها الأدلة العديدة المكتوبة والمدونة في مراسلات وكتب مختلفة.[10]

لا يبقى أمامنا سوى السبب الأمثل وهو سبب شعوري عاطفي، ولكنه مقنع ينتاب كل من يحاصر و يفرض عليه شروط المنتصر. نعتقد ـ وأغلب الباحثين ـ بأن سبب إستخدام الحرف العربي يعود لقداسته ولكونه الحرف المستخدم بكتابة القرآن، كما أنه يمثل بصلة وأخرى سرية الإرتباط الوثيق لهذه الأقلية مع شعائرها الدينية الإسلامية ومعتقداتها الدفينة، والتي لم تتخلص منها تخلصاً قطعياً، بل ظاهرياً وحسب لإقناع محاكم التفتيش أن تتركهم وشأنهم. لعلنا نعرف إن الجماعات الإسلامية في الأندلس قد آمنت بمبدأ التقية، وهو المبدأ السري المعروف بالتظاهر في ظروف قاسرة بغير ما يكون عليك إيمانك الحقيقي، وهو المبدأ الذي يطمئن المسلم منهم بقربه وصلته بأصوله الإسلامية حتى لو تنصر وأندمج بالمجتمع المسيحي الجديد، ولعل إستخدام الحرف العربي بكتاباتهم الأعجمية إنما يندرج من ضمن هذا الشرط والإحساس والتواصل. على أية حال قد خلق في هذه الأقلية نوعاً من الإرتياح والتماهي مع المجتمع الجديد، وكذلك الإحساس بإقتناء كنز لا يمكن للآخر الوصول له أو التأثير فيه.

---

[10] لمراجعة العديد من هذه الشهادات، لننظر أبحاث كل من: آسين بالاثيوس، لوثي بارالت، فوينتس، رامون ثونييغا وغيرهم الكثير.

2

رحلة الموريسكي الحاج بوي منثون إلى مكة المكرمة (مقاربة تحليلية)

بلدته، مجهولية المؤلف

هذا النص يعود لأحد المسلمين الموريسكيين المجهولين، إذ دونه دون أن يذكر إسمه، سوى الإشارة لبلدته بوي مونثون الواقعة في آراغون شمالي شرق إسبانيا، وهي اليوم تسمى بـ بوي سانتا كروث (بوي الصليب المقدس)، إذ على ما يبدو أن إسمها قد تعرض للتنصير أيضاً شأنه شأن العديد من المدن والأماكن والتقاليد. على أية حال (بوي مونثون) كانت تسمى قبل ذلك بـبوي مورو (بوي المسلم) ومن هنا ننتبه لتغير التسميات بمرور الوقت. والبلدة (الضيعة) من محافظة إويسكا هي اليوم لا يتعدى سكانها 370 نسمة مع مساحة لا تتجاوز العشر كيلو مترات. أما في أيام خروج صاحبنا الحاج في رحلته إلى مكة المكرمة، فقد كانت بلدة موريسكية تماماً متكونة من ستين بيتاً ويقطنها 80 موريسكياً يشتغل أغلبهم في الزراعة في أراضي أحد أعيان آراغون، وكلهم كانوا خاضعين لسلطة المسيحين المجاورين و الأكثر من هذا تحت سلطة ومراقبة محاكم التفتيش.

آنذاك كان ثلث سكان مملكة آارغون من الموريسكيين. ففي إحصائية أخيرة أجريت على سكان المنطقة بطلب من ماركيز آيتونا (وقت قريب لتاريخ الطرد النهائي للمسلمين الموريسكيين) كانت تشير إلى أن الموريسكيين كانوا يمثلون أكثر من 14 ألف بيت، أي ما يقرب من 71 ألف نسمة، وجل سكانها كانوا يتعايشون بإلفة مع سكان المنطقة المسيحين وهناك وثائق تاريخية تشير لرغبة أعيان آراغون ومعارضتهم لأي طرد للموريسكيين، مما يعني تواجدهم

ومعيشتهم الآمنة، يضاف لذلك مقدرتهم ومهارتهم في شؤون الزراعة والأمور الصناعية مما أدركه أهل المملكة واعيانها. مع ذلك وبعد تأجيلات عديدة وترجيات من شخصيات مهمة في مملكة آراغون، تم تنفيذ الأمر بطردهم نهائياً. هذا ولا بد من التنويه إن تاريخ طرد الموريسكيين من آراغون كان قد تأخر كثيراً، لذا تعد آراغون آخر منطقة لتواجد فعلي للموريسكيين، وهذا له أهمية تاريخية كبيرة. لا يمكن الجزم جزماً قاطعاً بأن المجتمع الموريسكي قد طرد طرداً نهائياً عن هذه المملكة والممالك الأخرى، فلا بد وأن أستقر بعضهم وبقوا في بلداتهم، وبتعاقب الأجيال التالية أندرسوا و اختفوا بين طيات المجتمع الجديد، وإلا كيف يمكن تفسير الآثار الإسلامية حتى أوقات قريبة من القرن التاسع عشر، أو كيف يمكن تفسير الكنوز من الكتب والمخطوطات التي تم العثور عليها في أوقات متأخرة وقد خبأها آخر الموريسكيين في بيوتهم أو مخابئ سرية أخرى.

هل أن مؤلف (إبتهالات الحاج) مجهولاً أم إسماً معروفاً؟ لطالما فكر الباحثون طويلاً بذلك، واشاروا لأسماء مختلفة بأنها لا بد وان تكون وراء هذه القصيدة المدونة عن رحلة الحج لمكة المكرمة، وقد ذكر بعضهم دون أي دليل أو وثيقة إسم الشاعر المويسكي محمد ربضان، بكونه المؤلف الحقيقي للقصيدة، متعللين بأنه كان إسماً معروفاً ولديه قطع شعرية بالشأن الإسلامي، وهو الأكثر قرباً تاريخياً من زمن الرحلة، وهو رأي أجتمع فيه كل خوان بيرنيت و آنخل بالنثيا. والشاعر محمد ربضان شاعر معروف بغزارة ما كتب شعراً، وقد ولد في منطقة قريبة من المقاطعة تدعى (رويدا دي خالون)، ووصل لنا من تآليفه الشيء الكثير مثل: تاريخ أنساب محمد وهي قصيدة مشذبة إقتبسها

من كتاب أبو الحسن البصري، أنشودة أقمار السنة و أسماء الله. الحقيقة أنها نفس الأسباب التي ذكرها الآخرون هي التي تجعلنا نقصي إسم محمد ربضان من مسؤولية تأليف القصيدة، فلماذا لا يدون محمد ربضان أسمه على قصيدة الحج ما دام قد كتب إسمه على قصائد عديدة معروفة وصلتنا في الموضوعة الإسلامية ذاتها. لا سبب مقنع. كما أن من يطلع على شعرية محمد ربضان في قصائد أخرى، سيجده بعيداً بعداً كبيراً خاصة في التناول والأسلوب الشعريين عن مؤلف قصيدة الحج.

للحديث عن مجهولية مؤلف (إبتهالات الحاج) تعيدنا من جديد إلى الأسباب القاهرة التي كان يرزح تحتها الموريسكيين تحت سلطة محاكم التفتيش البغيضة، مما يمكن عده سبباً وجيهاً لأن يدون الحاج بوي مونثون رحلته إلى مكة بدون ذكر لإسم، فعلى الأقل سيقيه من المسائلة والمتابعة من قبل السلطات، لا سيما ولدينا إشارات عديدة تؤكد أن أغلب الحجيج في ذلك الوقت كانوا يعودون إلى أرضهم الأم، ومنهم حاج بوي مونثون، إذ سيعود إلى بلدته ويكتب فيها رحلته شعراً ويعيش فيها ما يتبقى من حياته حتى موته أو تهجيره مع الآخرين. ليست لدينا أية وثيقة موريسكية في بلدان المغرب ما يمكن أن تشير بطرف وآخر لحاج بوي مونثون أو رحالة بمثل مواصفات، مما يؤكد ما قلناه عن عودته وإستقراره في بلدته.

الشيء الثاني وهو الأهم في مجهولية المؤلف، هو أنه إعتراف كامل من قبله بكونه مسلماً لم يتنصر (قسراً أو حقيقة) وبالتالي كان عليه كمسلم أن يؤدي فريضة الحج، وهذا الإعتراف والكتابة فيها بحد ذاته تهمة خطيرة تؤدي بصاحبها إلى المحرقة لا محال. وهذا ما نعتقده مهماً في فهم مجهولية المؤلف،

والسبب الأكبر بأن يتركها دون ذكر أسمه، على الرغم من أنه قد ذكر إسم بلدته صراحة.

القصيدة ـ الرحلة

القصيدة إضافة لأهميتها كوثيقة ادبية شعرية من تلك العصور، فهي بحد ذاتها وثيقة مهمة تضاف لكتب عديدة في أدب الرحلات. لدينا آثار كثيرة معروفة عن ولع العرب بالرحلات وىدابها، بل ان الشاهد الأكبر على ذلك شخصيات الرحالة التي تدخل في صلب مكونات حكايات ألف ليلة وليلة. لقد أتخذ العرب المسلمون من هذا الحقل ما يشبع رغبتهم بالإطلاع على عوالم قريبة بعيدة عنهم، وهم لم يلتزموا بأدب رحلة خالص، بل مزجوه بكل المعارف المتاحة لصاحب الرحلة، وفيها إضافة لوصف الرحلة والأماكن التي مروا بها، نجد معلومات وفيرة في علوم التنجيم والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والحكايات الفنطازية الأسطورية وغيرها.

بدءاً من القرن التاسع ميلادي يبرز إلى النور هذا النور الأدبي من الرحلات في البلاد الإسلامية، وجل الرحلات التي قام بها أصحابها ودونوها لنا كانوا يقومون بها بوصفهم تجاراً أو سفراء أو حتى جواسيس، أو لسبب بسيط لا يتعدى كونه الشوق للمعرفة والمعلومات الجديدة. من هنا أصبح لدينا هذا الكم الهائل من رحلات قام بها مسلمون من كل الجهات واغلبهم من الاندلس أو المغرب. لقد كانت أسباب الرحلة لمكة المكرمة بالنسبة للمغاربة والأندلسيين في المقام الأول هو (طلب المعرفة) في المراكز الحضارية والدينية الكبرى في القاهرة وبغداد ودمشق، دون التغاضي عن مسألة إكمال الدين بالنسبة للمسلم الرحالة بأداء مراسيم الحج. من هنا أصبح بحوزتنا وثائق سابقة لرحلة

الحاج بوي ومنثون كما عليه رحلة أبو حامد الغرناطي (1080 - 1169) و تحفة أبن جبير (1145 - 1217) أو رحلة إبن بطوطة المعروفة. الرحلة الأقرب نسبياً من الاندلسيين، تسبقه بالطبع، لزمن رحلة حاج بوي مونثون إلى مكة هي رحلة أحد الموريسكيين من مدينة طوطوشا عام 1395 وكذلك رحلة إبن صباح عام 1407، وهو من مدينة فاس وكان فيها متوجهاً لمكة فيأسره القراصنة وينقلونه لمدينة مايوركا ويبقة هناك سجيناً لثلاث سنوات قبل أن يتم إنقاذه، وهو يوثقها توثيقاً تاماً.[11]

إن إبتهالات الحاج بوي مونثون، على الرغم من كونها قصيدة شعرية، فهي لا تخرج من نطاق أدب الرحلة نفسه، نص رحلة حج وصفية لا تختلف إختلافاً كبيراً عن كتب الرحلات الأخرى. لقد كان المؤلف نبيهاً نباهة كبيرة ولم تفته الفرصة للتعبير عن دهشته و إعجابه بكل مظاهر الحياة التي مر بها سواء كان في البر أو البحر، دون أن ينسى كل ما مر به من مصاعب واهوال في رحلته الطويلة. لقد وصف لنا في قصيدته ـ الرحلة بقدر مواز الشعائر الدينية مثلها كتوقفه أمام ما رأته عيناه من مناظر ومشاهادات ومواقف مر بها في الطريق نفسه أو في المدن والبلدان التي مر بها. وهو في وثيقته هذه يدخل بقوة كشاهد آخر من قلائل من زاروا الديار المقدسة في مكة المكرمة ونقل لنا تصوراته وآرائه عنها.

إن شهادة حاج بوي مونثون في رحلته هذه قد أكدت لنا على وجه اليقين ـ لصعوبة العثور على وثائق كثيرة ـ بأن تقليد الحج لدى مسلموا الاندلس

---

[11] ينظر في هاتين الرحلتين بحث ميكيل إيلاثا المنشور عام 1983.

الموريسكيين كان قائماً طوال فترة تواجدهم ولم ينقطعوا عن تأديتها حتى الطرد النهائي من شبه الجزيرة الإيبيرية. بحوزتنا العديد من الوثائق التوجيهية التي تحث الموريسكيين بالتوجه إلى مكة وتشرح بالتفصيل الأغراض المنشودة منها وطرق إقامتها، ولكننا في نص الحاج نتأكد تماماً من أن هذا التقليد كان قائماً وسالكاً لهم. هناك وثيقة عثر عليها من بين أوراق محاكم التفتيش بمحاكمة لأحد الموريسكيين لإتهامه بكونه مسلماً وقد أعترف للمحكمة بنيته بزيارة مكة المكرمة ليؤدي ما عليه من واجبات كمسلم.

الرحلة و ووسائل الرحلة و ظروفها

بتتبع شروحات ما وضعناه للقصيدة المترجمة مما يأتي بعد ذلك، نعرف أن الحاج قد خرج من بلدته في بوي مونثون (ولا بد أنه أتخذ طريقاً برياً) ليصل لمدينة بالنثية ومن هناك يصعد على متن أحد السفن ليتوجه لأحد البلدان المغاربية، ليصل بعد ذلك مدينة القاهرة ليجتمع مع حجيج آخرين وقوافل أخرى قادمة من جهات المشرق والمغرب ليمضوا في طريقهم وصولاً لمكة المكرمة. بعد إنتهاء مراسيم الحج، لا يذكر لنا الحاج شيئاً عن طريق عودته، ونحن نعتقد إعتقاداً بديهياً بأنه قد إتخذ الطريق نفسه بالرجوع إلى إسبانيا (بالنثيه) ومنها العودة براً إلى بلدته الصغيرة.

إذاً فطريق الحاج يكون وفق التصور التالي : براً ـ بحراً ـ براً. الطريق البري حتى مدينة بالنثية، ومن مينائها يصعد في إحدى السفن عبر البحر المتوسط ليمر بتونس (يتوقف فيها بمراحل) حتى يصل ميناء الإسكندرية ومنها هناك يمضي برفقة مجموعة حتى بركة الحج في القاهرة ليلتحق بقافة الحج. الصعوبة بمكان هو الإجابة على مدى التعاون البحري بين الممالك المسيحية والبلدان المسلمة، ولكن حلها يحيلنا لمجموعة من الإتفاقات ما بين الإمبراطورية العثمانية الحاكم الفعلي للعالم الإسلامي آنذاك وبين الممالك المسيحية والتي بموجبها يتم إحترام تقاليد الإبحار ما بين الضفتين لشؤون تجارية في الأغلب وللتنقل والسفر أيضاً. على الرغم من التنافس ما بين الإمبراطوريتين والمعارك الحربية المعروفة فيما بينهما، خاصة البحرية

منها، إلا أنه على ما يبدو أن ذلك الإتفاق بخلفيته التجارية، كان يحترم ولفترات طويلة نسبياً.

لقد كان التعامل البحري قائماً ما شمال أفريقيا و الغرب المتمثل بإسبانيا ودول الجوار، وهناك إشارات في وثائق تشير للتجار اليهود ومن مارسيليل الإيطالية من كان يقوم بذلك الدور على الأغلب. كانت التجارة هي الغطاء الرئيسي لمبدأ الإبحار المتبادل ما بين الضفتين. لقد كان هؤلاء البحارة واصحاب السفن يقيمون في موانئ الضفتين يتاجرون بكل بضاعة وفي إنتهاء فترة تواجدهم ينقلون من المسافرين ما يسمح به حجم سفنهم. لدينا معلومات على أن هؤلاء التجار كانوا يقايضون السلاح والأقمشة السلع المتداولة في الضفة الغربية مقابل بضاعة ما يورده الجانب الآخر في شمال أفريقيا من جلود وشمع وحبوب، يضاف لها العبيد، وهي بضاعة رائجة و مطلوبة على الدوام. لا ننسى كذلك إشارات الحاج نفسه حول رسومات ما دفعه للسفر، وكذلك التأكيد على الرسومات التي تدفع كضريبة إبحار للجانب الإسباني، مما يؤكد الفكرة القائمة بشأن التنظيم والإتفاق حول التعامل الممكن ما بين الطرفين.

إن السفن وطواقمها من الإيطاليين كانت شائعة آنذاك، وهناك أكثر من إشارة لتعاونها التجاري ما بين الضفتين. وهذا لا يعني بأية حال أنها كانت مناطة بهم إناطة كاملة، بل كانوا يستخدمون معهم من الفرنسيين والإسبان الكثير، كما أن أصحاب السفن كان من الممكن أن يكونوا إسباناً أيضاً، ويتركون مسألة تشغيلها بأيدي البحارة الطليان بسبب من مهارتهم وسمعتهم المعروفة، يضاف لذلك وهو الأهم، أنه كان لهم باع طويل في مسألة التعاقد والتعامل مع

الأتراك، وهو مبدأ مهم لإستمرار تجارتهم وإبحار سفنهم هنا وهناك. عليه كانت الرحلات البحرية لهذه السفن كانت تمر بالمقام الأول في موانئ إسبانيا وإيطاليا وفرنسا و ضفاف المغرب حتى الإسكندرية. في مقطوعات طويلة من القصيدة هناك ذكر لأسماء البحارة و والمهن المتداولة داخل السفينة وظروف العمل والإدارة فيها مما يوضح لنا بشكل كبير تفاصيلها الهامة.

المخطوط الذي بين أيدينا ونترجمه للعربية لا يشير إطلاقاً لأي تاريخ محتمل لسفر حاج بوي مونثون، وليس هناك أي تلميح للسنة التي تم فيها الحج ولا تاريخ العودة. الباحث (بانو إي رواتا) في بحثه المنشور عن الرحلة ـ القصيدة يضعها ما بين تاريخين محتملين هما 1492 و 1609، وهو عبر عملية حسابية معقدة غير مقنعة بالمرة، يشير لكونها حدثت نهاية القرن السادس عشر أو بدء القرن السابع عشر، بل أن يضع عام 1603 كعام محتمل لسفر حاج بوي مونثون. والإحتمال الاكبر أن وضع تاريخ مثل هذا لسفر الحاج لمكة جاء تقديراً لأحداث تاريخية مهمة لها علاقة بقرار الطرد النهائي للموريسكيين. فكما نعلم أن قرار الطرد لم يطبق تماماً في مملكة آراغون ومقاطعاتها، ومنها بلدة الحاج، إلا في عام 1610، مما يعني أنه كان هناك هامش زمني أتاح للحاج الموريسكي أن يستغله في تلك السنين الأخيرة لأداء مهمته. وعلى أية حال لا يمكن الجزم بتاريخ محدد لشروع الحاج بمهمته للوصول إلى مكة، ولعله قام بها في سنة من تلك التواريخ المحتلمة الآنفة الذكر.

المشاهدات التوثيقية للمدن والمظاهر الدينية والحياتية

من خلال متابعة رحلة الحاج من بلدته مروراً بمدن ودول أخرى قبل أن يصل إلى مكة المكرمة، نخرج بانطباع هائل على ضوء المعلومات التي يمدنا بها. فهو وإن كان قد أخفى علينا المعلومات عن كيفية تنقله في إسبانيا وبين مدنها وقراها حتى وصوله مدينة بلنثية، أو يبدو أنها لم تكن بأهمية له، فهو من جانبه لم يبخل علينا بتفاصيل الرحلة والمدن التي مر بها والظروف التي عاناها وتفاصيل ما شاهده بنفسه بدءاً من رحلته البحرية حتى وصوله إلى مكة المكرمة. وهي معلومات قيمة، بعضها له واقع تاريخي واخرى من تخيلاته وتصوراته البحتة، على أية حال ما نقله لنا يمثل طبيعة المرحلة وواقعها بشكل كبير.

لقد قدم لنا إنطباعاته عن السفر في السفن، وصور لنا طبيعة التعايش مع بشر من مختلف أصناف المجتمع، وبين لنا فيها طبيعة إدارة السفينة بدءاً من ربانها مروراً بنوتيتها وبحارتها وكتبتها وحفطتها وطباخيها ونوع المسافرين من تجار و رحالة، الأمراض المستشرية، طبيعة الأطعمة ونوعيتها في الأيام الإعتيادية وفي أصعب الأوقات. أخبرنا أيضاً عن العواصف والمتاعب التي مروا بها، وما يمكن تصوره عن كل من ٌ مر بها في مثل أوضاعهم، مما يمنحنا فكرة عن كيفية إدارة الوضع في إثناء المصاعب وكيفية التصرف إثنائها.

من خلالها نعلم بما نعرفه حتى فترة قريبة عن تجمع القوافل الماضية للحج، وهي تتجمع كلها القادمة من جهات مختلفة من المغرب والمشرق لترتبط بأمير قافلة الحج القاهرية. على الرغم من انه لا يخبرنا على وجه اليقين بمن قدم معه من إسبانيا إلا أننا بتتابع خطوات طريقه نعرف من أن هناك أشخاص عدة قد رافقوه، وإن لم يكونوا من قريته أو القرى المجاورة فهم على الأقل من إسبانيا وقد إجتمع بهم على متن السفينة المبحرة من ميناء بلنثية. هناك في القافلة يقدر لنا العدد بمئات الآلاف، يمر بتوصيف أمير القافلة، الحلي التي يحملونها والجمال المرافقة لهم، وكذلك الحرس والمدافع والأسلحة الحامية لهم من أخطار قطاع الطرق في الصحراء الشاسعة. يمنحنا كذلك مسرى الطريق المتبع من القاهرة حتى مكة، وهو طريق لم يختلف كثيراً عن طرق الرحالة الآخرين مشارقة ومغاربة وصفوه لنا وكتبوا عنه في رحلاتهم الأخرى.

بتتابع سفره وتوقفاته في المدن العربية، نقلنا لنا صورة توصيفية عن طبيعة ناسها، طباعهم وحتى أكلاتهم، أنواع مزروعاتهم وطبيعة أهوائهم والزراعة والمزروعات فيها. لقد شرح لنا أيضاً في أطراف منها جغرافية المدن والبلدان و الظاهر الطبيعية التي شهدها فيها من حر وعواصف وأنواء جوية متغيرة من منطقة وأخرى. لم يتبع صاحبنا الحاج من وضع تخطيطات للمدن المرة بها وما شاهده فيها من مظاهر مدنية وآثار. لعل أهم ما فيها كان نقله الدقيق لجزيرة جربة التونسية، كذلك الآثار الفرعونية التي شهدها ليست بعيدة عن القاهرة وضواحيها المكتضة بالجوامع و الأحياء. في القاهرة ـ كما عليه في مكة والمدينة ـ سيقف مندهشاً آمناً بمعجزات ما رآه مثل شجرة العائلة المقدسة التي يطنب ويزيد بتمجيدها.

بوصوله لمكة المكرمة ومن ثم حجه وخروجه إلى المدينة، تشكل العمود الأساس لرحلته وحكاياته، فهو يتوقف مطولاً بالشرح والتفصيل لكل ما رآه هناك. ينقل لنا تصوره عن عظمة ناس مكة المكرمة ممثلة بشريفها والفخامة والعظمة البادية عليه وعليها. لن نقف هنا (فكله موجود في القصيدة والتعليق عليها) أزاء كل ما علق عليه من شعائر وتقاليد حج أو صلوات أو مرافقة والفخر بالوصول لكل هذه الأماكن ولمسها لمس اليد والتمتع بقدراتها الدينية الكبرى. إن وصفه لمكة والكعبة وما يحيطها قد فاق كل وصف، وهو بهذا إنما أراد إظهار فخامة وروعة الحس الإسلامي الذي سيطر عليه وعلى أخوته الحجيج بمختلف طوائفهم وفرقهم. على ذلك لم يقف عند هذا، بل ذكر لنا مشاهداته كلها من مساجد و قبور أئمة وأنبياء وجبال معروفة وأشياء أخرى لها علاقة بعائلة الرسول ورفاقه والأنبياء الآخرين.

إن كل ما نقله لنا حاج بوي مونثون في مدونته ورحلته الشعرية هذه، إنما تحيلنا فوراً لصورة ناطقة بوقائع حقيقية نحن بأمس الحاجة لها لمعرفة كل ظروف تلك المرحلة. كما أنها يمكن فهمها ـ بعيداً عن شكلها الشعري ـ كتحقيق صحافي لرحلة قام بها رجل مدفوعاً بإيمانه الكبير بكل خطوة بخطوها وصولاً لهدف سامي له عميق الصلة بحياته ومعتقداته الدينية. لن ننسى هنا إنها رحلة بشرية لإنسان إبن لعصره أراد بها إعطاء صورة لبني قومه عما قام به وما يمكن أن يمروا به لو شاؤوا أن يقوموا بالرحلة ذاتها في أوقات أخرى. وهو في كل رحلته الدينية هذه، لم ينس شرطه كإنسان حي مجبول على المشاهدة والتلمس والفهم والتطبع، وكلها أفادته إفادة كبرى كي يصل لمراده ويحقق الإنجاز الاكبر في حياته.

وصف نسخة المخطوط الأعجمي المعتمدة بالترجمة والتحليل

هذا المخطوط الأعجمي لرحلة الموريسكي الإسباني المسلم من دياره في مقاطعة آراغون حتى مكة المكرمة والعودة من جديد إلى شبه الجزيرة الإيبيرية بعد أدائه الحج ـ والذي نعيد صياغته بالعربية في هذه الترجمة ـ تم العثور عليه ضمن لقى في أبنية آيلة للسقوط في منطقة المونا سيد دي لا سييرا وقد كان يشكل جزءاً من كتاب مخطوط أكبر يضم أشعاراً دينية و نصوصاً وشروحات وتعليقات دينية مختلفة. من ضمن موجودات الكتاب ونصوصه المتنوعة، يتم العثور على نص (رحلة الحاج إلى مكة) ملحقاً به بشكل إعتباطي. من النظرة الأولى يتم التأكد من أن النص لا علاقة له بكل محتويات الكتاب الأخرى.

الرحلة كاملة (نص قصيدة) تم نشرها للمرة الأولى برقم 13 ضمن مجموعة النصوص الألخميادية (الاعجمية) بعنوان مستقل هو أشعار (إبتهالات) الحاج من قرية بوي مونثون (Coplas del Alhichante de Puey Monçón) والتي تمت تحت إشراف السادة المستعربين خل إي خل و ريبيرا سانشيث (Gil y Gil, Ribera y Sánchez)، ليتم ترجمتها فيما بعد من الأعجمية للإسبانية وتوثيقها مع التعليقات والشروحات من قبل

المستعرب خِل نفسه ونشرها للمرة الأولى في مجلة (الأرشيف)[12] عام 1890، والتي كان يديرها ويشرف عليها العلامة روكه شاباس. ولكن الشرح الأوسع والأكبر[13] مع دراسة مستفيضة قام بها نهاية القرن التاسع عشر (1897) المستعرب ماريانو دي بانو إي روتا (Mariano de Pano y Ruata) عضو أكاديمية التاريخ الملكية وبمقدمة كتبها للكتاب المستعرب إدواردو دي سابيدرا (Eduardo de Saavedra) عضو الأكاديمية الملكية أيضاً.[14]

---

[12] Gil y Gil: Las coplas del alhichante de Puey Monzón, el Archivo, Denia, IV (1890): 171-181.

[13] إن قراءة كاملة لشروحات وتعليقات ماريانو بانو إي رواتا تؤكد إضافة إلى إطلاعه على معلومات مهمة عن العرب والإسلام إلا أنه كأي مستعرب من مدرسته للقرن التاسع عشر يقع بالكثير من الأغلاط والتوصيفات التعميمية بقضايا مهمة، كما أنه لا يختلف عن الآخرين في تعليقاته عن قضايا إسلامية تتسم بالسب واللعن والتشهير، بل أقلها عدم الإعتراف بالإختلاف ومحاولة جر كل ذلك إلى ناصية التصحيح والنصح والإستهزاء. لسنا هنا بمحاولة لدراسة ذلك، بقدر ما نشير لها، ولعل لنا أو لباحث آخر مهمة دراسة هذه الشخصية وآرائه الأخرى التي ليس لها علاقة بمخطوطنا الذي ندرسه وإن كانت تعليقاته وشروحاته تصب في صلب المخطوط.

[14] Pano y Ruta, Mariano: Las coplas del peregrino de Puey Monçon (Viaje a la Meca en el siglo XVI), Comas hermanos, Zaragoza, 1897.

الحجم الأصلي للمخطوط[15] ككل (النصوص الأخرى مع أناشيد الإبتهالات) يتضمن 265 ورقة بحجم 22×13، ومجلدة بجلد طبيعي عليه تخطيطات ونقوش عربية ومثقبة أوراقه بمسامير من الحديد وملصوق بصمغ قوي مثبت. ما وصلنا بدون شك غلاف جلدي يعود لفترة لاحقة لزمن كتابته خاصة أنه يتضمن تجليداً معاصراً وحروفاً لاتينية كعناوين رئيسية بالخط الغوطي. لا بد أن الغلاف الأخير بالحروف اللاتينية قد نزع من كتاب آخر ليغطي على أصل المخطوط الموريسكي للتورية على محتوى الكتاب الممنوع في زمنه وحتى لا يثير أية شبهة أمام الجيران أو محاكم التفتيش. الحجم الأصلي للإبتهالات الشعرية (الصفحات الأخيرة من المخطوط فقط) هو 23 ورقة، وقد تضررت وريقاته الأولى بحيث من الصعب ملئها أو التعرف على محتوى كلماتها. حاولنا قدر المستطاع بالحصول على نسخة الكترونية من القصيدة نظيفة

---

[15] Manuscrito, s. XVI. 265 f., 2 f. de guardas; papel; 22 x 13 cm.
Aljamía y árabe; escritura magrebí; enc. en madera y piel de la época.
Biblioteca Tomás Navarro Tomás (CCHS-CSIC).
Referencia: Junta XIII. Signatura actual: M-CCHS RES RESC/13.
(مخطوط، قرن 16 ميلادي، 265 صفحة، حجم 22×13 سم.
بالآلخمیادیة والعربیة؛ کتابة مغربیة، مجلد بالخشب وجلد من تلك الفترة.
مکتبة توماس نابارو توماس. الإشارة للمخطوط في الجمعية برقم 13، اما رقمها الحالي فهو: M-CCHS RES RESC/13).

لنرفقها في نهاية الكتاب لمنْ يرغب مراجعتها والإستدلال بها ـ خاصة من بين باحثي ودارسي الكتابات والآداب الأعجمية ـ فلم نوفق بسبب رفض مؤسسة المخطوطات الوطنية، وذلك لهشاشة المخطوط وتلف ورقه مما يصعب تصويرها بشكل مناسب. لذا لجأنا لإرفاق النص المترجم للعربية بملحق للنص مصاغاً بالإسبانية لمنْ يرغب بالإطلاع عليه، كذلك بعض الصفحات بالآلخميادية (حروف عربية) مصورة مما أستطعنا نقله من المخطوط الأصل نقلاً عن الصفحة الألكترونية لمعرض المخطوطات التابع للمكتبة الوطنية في معرضها المعنون: الآداب الموريسكية.

نجد في المخطوط كما عليه في ترجمتنا للمحتوى، نقص في البسملة الإفتتاحية وكذلك في العنوان و المقطوعة الأولى، أما المقطوعة الثالثة فلا نعثر سوى على بيت واحد منها، أكثر من واحد بقليل هو ما وصلنا من المقطوعة الخامسة، ونقص البيتين الأوليين بالنسبة للمقطوعة السادسة. أما بقية القصيدة فهي كاملة وإن كنا سنعاني من تفسير بعض مفرداتها أو إرجاعها لأصلها، لا سيما أنه يكتبها بإسبانية مطعمة بآراغونية قديمة ومفردات عربية حسب تلفظها وفهمها من قبله.

القصيدة بمقطوعاتها الـ 79، كتبها الحاج بوي مونثون على نمط نشيد ثماني المقاطع الشعرية وهو المسمى (كوبلاس) وتقيد بها تماماً، وإن كان في بعض الأبيات يجتازها دون ان يثير ريبة او خللاً في الوزن الشعري. كل مقطوعة شعرية تتألف من ثماني أبيات، مما يعني أن القصيدة كاملة تتضمن (632 بيتاً شعرياً) مع مراعاة ما ذكرناه من ملاحظات لاحقة، بأن بعض المقاطع لا تتألف من ثماني أبيات أما لضياعها أو بسبب المؤلف نفسه الذي لم يلتزم في

بعض المقطوعات بإيرادها بمقاطعها الثمانية ولجأ لسباعية المقاطع أو خماسيتها، وهي في مواضع قليلة جداً، ننقص ثمانية ابيات من المجموع فيكون الرقم الصائب هو 624 بيتاً مما عثر عليه من أبيات القصيدة وما مدون ومترجم في هذه الطبعة.

ننقلها هنا للمرة الأولى للغة العربية، دون الحياد الممكن عن المعنى المراد به من قبل شاعرنا الحاج، إلا أننا نؤكد هنا على صعوبة نقل صيغتها الشعرية و موسيقاها للغة العربية، وبالتالي حاولنا قدر الإمكان جعلها في حيزها الشعري وإن فلتت منا في مواقع عديدة لصعوبة إيجاد حل مناسب لها. ما نريد قوله أننا التزمنا بالمعاني التي أراده لها مؤلفها المجهول، مع لعب بسيط بين حين وآخر تقتضيه الضرورة في الترجمة و النص. القصيدة كما يتضح من محتواها لا تضم كنزاً أدبياً وشعرياً مهماً، بقدر كونها وثيقة ذات صلة لفهم واقع أولئك الموريسكيين الذين عاشوا ضياعاً في بلدهم الأصل (إسبانيا) وضياعاً لغوياً وجذرياً مع معتقداتهم الإسلامية. عليه هي شهادة قيمة عن تلك الفترة، ومعلومات عن رحلة إلى مكة في القرن السادس عشر يصعب إيجاد مثيل لها من الناحية الجغرافية والتاريخية والعقائدية.

3

قصيدة إبتهالات الحاج

(ترجمة القصيدة والتعليق عليها)

(بسم الله)[16] الرحمن الرحيم

(هذه هي) إبتهالات (حاج بوي) مونثون[17]

[16] كل ما يجيء بين قوسين مفقود في المخطوط الأصل. البسلمة جاءت بالعربية.

[17] إبتهالات: ترجمة لكلمة (Coplas) وهي فيما تعني قصيدة/ قصيدة ثمانية/ نشيد/ أو قصيدة فحسب.

1

..... المكان[18]

..... (القـ)ـلب

..... للمضي حتى البيت

..... وتحصل على الغفران

..... وفيه كل الحق

ما نجده ..... هنا

مكة المكرمة

تمنحني كل الصلة.

---

[18] النقاط المتتالة تعني فقد النص ولم نجد له بديلاً.

2

لقد توجهت بكامل رغبتي

وبكل نسبي

للمضي حتى أرض المسلمين

لأداء فريضة الحج

ولكي أتم حجتي [19]

التي هي واجب رئيسي

إذ يبعد الشرور

عمن يقوم بالرحلة.

---

[19] حجتي وردت بالعربية (ويعني بها إسلامي أو إيماني) لطالما ذكر الحج في البيت السابق له.

3

على الرغم من أن رحيلي

.....

.....

.....

.....

.....

.....[20]

[20] كل النص مفقود ما عدا البيت الأول.

4

ما ان وصلت بالنسية

لم أرغب التأخر

بعد أن أتممت واجباتي

و رتبت أموري:

دفعت للمأمور العام

ما وجب علي من رسوم

وكذلك لصاحب السفينة

الذي هو من أصول مدينة البندقية.

5

..... بسعادة

..... باعلان اليوم

.....

..... لـ تونس البعيدة.[21]

[21] لا يلتزم صاحب القصيدة بالوحدة الثمانية للأبيات، ويتلاعب بعددها الأصل في بعض المواقع، إذ بعضها لا يتجاوز الأربعة أبيات (مقطوعة5) و أخرى سبعة (مقطوعة 6 و 7) أو ستة (مقطوعة 9).

6

.....

مائة وسبعون ألف دار

مما عددته فيها

مدينة بكامل أبهتها[22]

مدينة بكامل غناها،

بالفرسان و النبلاء

حتى أنني لا أستطيع إحصائهم.

[22] ليس هناك إشارة في هذه المقطوعة 6 والتي تليها 7 إن كان يعني بها مدينة بلنسية أم مدينة تونس.

7

مدينة رائعة جداً

لمن يكون براحة فيها

ومنْ يتوجس من شيء

لا سبيل عنده لأي راحة

ولأننا تداولنا مسألة رحينا

فقد اعتدنا على النوم

بالخارج من حدود المدينة.

8

هذا هو اليوم الثاني من عيد الميلاد

توجهنا عبر تلك الوديان

مرة عبر البر ومرات عبر البحر

وعبر الضيع والمدن

مواجهين الأخطار في البحار المظلمة

وهكذا توجهنا حتى جربة[23]

الجزيرة شديدة الإخضرار.

---

[23] هل هي نفسها الجزيرة التي سيرد على ذكرها في المقطوعة الشعرية رقم (13 - xiii) أم يتحدث عن أخرى؟

9

من تونس مضينا حتى الحمامات

ومن هناك حتى مدينة هرقل،[24]

ومن ثم إلى سوسة و المونستير

ثلاثة أيام بلا طعام

وبينما كنا في لا فورتونا[25]

فكرنا أن هلاكنا قد وصل.

---

[24] مدينة هرقل القديمة أو هرقليا في مدينة سوسة.

[25] خليج لا فورتونا (خليج الحظ، إسماً على مسمى) الذي سيرد ذكره في المقطوعة (14)، وهو خليج سرته نفسه.

10

عندما توجهنا إلى صفاقس

موشكين على الهلاك جوعاً

و مضعضعين من الرحلة البحرية

و العواصف المهلكة

لم نعثر على ما يقيم أودنا

ولا منْ يشفق على حالنا

إذ لم نحصل على لقمة خبز واحدة

لا حباً لله ولا دفعاً لمال.

11

سائراً مع صاحبي[26]

كاظمين آلامنا

عارضين سوء حالنا

تصادفنا برجل غريب:

فقادنا معه إلى حيث ماشية كثيرة تسرح

و بستة (نصريات)[27]

اشترينا خروفاً.

---

[26] الإشارة الأولى والأخيرة لرفيق سفر له، ولا علم لنا إن كان قد خرج برفقته من قريته أو إلتقاه في الرحلة الطويلة.

[27] عملة نقدية سكها موحدي بني نصر فسميت بإسمهم.

12

وضعنا الخروف في قدر

بلا ماء ولا قلي

بلا توابل ولا ملحقاتها

ولا أي شيء يطهى معه

هكذا بلا شيء يرافقه

تركناه يطهى

وبلا خبز ولا أي شيء آخر

إضطررنا لأكله.

13

من هناك مضينا حتى محراقه

بلدة رائعة بحق

فيها لم نرهم يبحرون بعد

فكان أن نمنا في المرسى:

من هناك أبحرنا بالطبع

و الريس[28] مازال متوعكاً

فتوجهنا حتى جربة

إلى مينائها وسوقها المسمى لور.

---

[28] جاءت هكذا بالعربية.

14

جزيرة رائعة جداً

بأشجار فاكهة كثيرة

شجر تفاح، خرنوب، وكمثرى

عرائش عنب و أشجار تين

نخيل فيها كثير

يطرح بلحاً لذيذاً

جزيرة رائعة بحق

بالرغم من أنها رملية كلها.

التعليق على الأناشيد من 1 - 14

مغادرة مدينة بلنسية ـ وصف تونس ـ الحمامات

هرقليا أو سوسة ـ المنستير ـ المهدية ـ صفاقس

محراقه ـ جزيرة جربة.

تقص هذه المقطوعات الشعرية الأربعة عشر بدء رحلة الحاج منذ خروجه من قريته بوي مونثون في آراغون الإسبانية حتى وصول سفينتهم إلى جزيرة جربة. على الرغم من أنه يبتدئ الرحلة بميناء بلنسية ولا ذكر للمسافة المقطوعة من قريته حتى بلنسية، ولكننا نفترض أنه لم يجد أية أهمية لذلك، سوى التعليق على تبريكات الأهل وسعادته بالقيام برحلته للحج التي هي واجب عليه كمسلم، رغم الصعوبات الكبيرة والمخاطر المحتملة من إكتشاف أمره من قبل رجال محاكم التفتيش الرهيبة أو عيونهم المبثوثة في كل مكان، جواسيس عليهم حتى في بيوتهم وبين جيرانهم.

لا وجود لترتيب منطقي نستطيع المسك به لسرد رحلته. فلا نعرف تمام المعرفة إن كان في المقطوعتين الشعريتين رقمي 6 و 7 يشير بهما إلى مدينة بلنسية أم تونس، والحال نفسه فيما لو كانت جزيرة جربة المشار لها في المقطوعة رقم 8 هي الجزيرة ذاتها المذكورة في المقطوعة رقم 13. لا بد أن نرضى إذن بأن المقطوعتين 6 و 7 هما إشارة لتونس و أن المقطوعة رقم 8 هي مختصر الرحلة وصولاً إلى جزيرة جربة المسماة في القديم بـ (منينكس). يعود الحاج مرة أخرى لأوصاف دقيقة عن تونس وما جرى في الرحلة ثم

يعرج للحديث عن العاصفة التي واجهتهم في خليج لا فورتونا (خليج سرتا) التي لا يقف عندها حتى المقطوعة رقم 14 مما يعيد لأذهاننا مجدداً الخلط التي تعاني منها المقطوعات وعملية ترتيبها المنطقي.

على أية حال يشير حاجنا في المقاطع الأربعة عشر الأولى إلى أنه خرج من قريته في طريقه للحج متمتعاً برضى كل عائلته وطامحاً لملاقاة وجه ربه ورضى أوليائه، ليركب من مدينة بلنسية في سفينة من أصل بندقي (مدينة البندقية الإيطالية) قبطانها يدعى الريس شبيطي أو سبيتي، يدفع الأجرة كاملة وكذلك الرسوم لمأمورالضريبة العام(ما يشبه دائرة الجمارك والضريبة في عهدنا، وهي وظيفة مستحدثة من قبل الملك وصاحبها ذو نفوذ كبير يكاد يكون بمثابة مدير في وزارة الخزانة العامة). ودون وصف آخر للرحلة في بدئها، يكون قد وصل تونس التي لا ينأى عن تعداد ثرائها ونبلها الذي لا يوصف. يغادروا تونس ليحلوا بالتتابع في الحمامات (مدينة تجارية ومرفأ مهم عاش بها ما لايقل عن 10 آلاف نسمة في وقت زيارة الحاج)، وهرقليا في سوسة المعروفة بجوامعها الرائعة ومن ثم في المنستير وكلها تقع على خليج ما يسمى بالحمامات، وهو ما يؤكد لنا قصر المسافة، إذ أن السفينة كانت تتوقف في الطريق بين المدن لحمل مسافرين جدد وتحميل البضائع التجارية.

من هناك يتوجهون حتى المهدية (مدينة تابسوس التاريخية) المشيدة في عام 900 من قبل أحد الخلفاء الفاطميين، وفي عهده كانت ميناءً معتاداً لوصول السفن التابعة للدول المسيحية بقيادة الإمبراطورية الإسبانية. بعد المهدية يصلون صفاقس المدينة الجميلة ولكنهم يصلون بحالة إعياء ومرض وجوع شديد. كانوا قد أمضوا الأيام الثلاثة الأخيرة بدون أكل، وعلى ما يبدو إن

إنطباع رحالتنا الحاج عن أبناء ساحل المدينة بأنهم شحاح لا يتصفون بالكرم المعتاد، لأنهم لم يحصلوا على شرب ولا طعام سواء بالحسنى أو الدفع من أموالهم. لكنهم بعد لأي يعثرون بصاحب قطيع أغنام ليشتروا بستة عملات نقدية من فئة النصرية (عملة نقدية مربعة الشكل أدخلها النصريون في حكمهم لغرناطة والأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبقيت متداولة لفترة طويلة من قبل الملوك الكاثوليك ورعاياهم حتى بعد طرد المسلمين) خروفاً ويأكلوه بعد طهي عاجل بلا أية توابل ولا ملح ولا شواء، ليغادروا مجدداً حتى محراقة وهي ضيعة رائعة حيث يباتون الليلة في مينائها.

اليوم التالي يستمرون بإبحارهم والريس مازال يعاني من المرض ليصلوا جربة، الجزيرة المعروفة بخضرتها وكثرة أشجارها وفاكهتها لا سيما بلحها اللذيذ. نعلم أن الجزيرة قد تم الإشارة لها في ملحمة يوليسيس عندما توقف فيها أصحابه وتمتعوا بفاكهتها ونعيم أشجارها. ليس هنا إشارة من قبل رحالتنا الحاج لمعالم أثرية أو نصب حديثة العهد وردت في كتابات أخرى لمؤرخين ورحالة زاروا المنطقة آنذاك و وصفوا لنا هرماً من رؤوس الإسبان الموتى في معركة عام 1558 التي انتصر فيها جيش كارا مصطفى العثماني ضد قوات دوق مدينة سالم (مدينة ثيلي) الإسبانية.

رحالتنا الحاج طوال وصفه في القصيدة إنما شاء نقل إنطباعه الإنساني للرحلة وما تراه عيناه وما يستطيع ضمن الحيز الشعري للقصيدة، فلا ننسى أنه مجبر على البحث عن صيغ شعرية مناسبة قد تمنع بعض الأحداث من تجريبها، فلو أنه كتبها نثراً لكان قد توقف وتمعن بالكثير من التفاصيل الأخرى التي فاتته وهو يدونها شعراً.

15

أبحرنا نحن الحجيج

بفرح من جربة،

رفقة جمع من التجار

في طريقنا إلى الإسكندرية.

مبحرون بطريقنا

في أعالي البحار الهائجة،

فاعترضتنا عاصفة بحرية

مخيفة بشكل مرعب.

16

عندما توسطنا خلجان لا فورتونا

اعترضتنا بلا تأخير

العاصفة

و أوشكنا على الغرق في البحر

هنا بدأ نداء القبطان

بأعلى صوته:

" افرغوا السفينة

وإلا لن ينجينا ناج".

17

بسرعة كبيرة

أفرغنا السفينة

دون أن ننظر إن كانت بضاعة

أو كانت من زينة

ثروات كبيرة رموا حتى البحر

من أملاك التجار

وكذلك مما يحملُ الحجيج

من تموين.

18

الملك المهيمن

أراد لنا النجاة

إذ كل شيء بيديه

فكان أن هدأ البحر

فسجدنا بخشوع

ممتنين بإخلاص

لربنا الأعلى

الذي أراد لنا الشفاعة.

19

ما أن خلفنا لا فورتونا

و خلفنا الهلع و الخوف

تقابلنا بشر آخر

وإن كان أهون مما سبق

فإنه محطم لنا

إذ بقينا بلا مؤونة

بعد أن رموها إلى البحر

خشية على السفينة.

20

نادى الريس شبيطي

على إبن عم له

و أمسكه من يده

و جعله يحلف:

" أن يقوم على الزاد والماء

حافظ لها

و يوزعها بالعدل سواء

ما بين الصبي و الشيخ".

21

ما أن أصبحنا بعيداً عن الخطر

وما أمضيناه من شرور

في كل ذلك الوقت

الذي أمضيناه في البحر

لقد شاء الله [29] أن يعيننا

برحمته و بركاته[30]

بأن حملنا حتى مرسى

في مملكة منتيباركا.[31]

---

[29] يرد لفظ الجلالة (ألله) بالعربية على العكس من أبيات أخرى يذكر فيها (الرب).

[30] بركة ترد بالعربية.

[31] ربما أراد بها مملكة سيرين القديمة وهي مرسى سوسه اليوم، التي أتى إسمها في القصيدة كبلد أو جبل البركة.

22

وكل منْ كان على متنها

هبطنا عنها

منْ كان منا راجلاً

أو منْ كان على جواده،

وبإشارة شكر

باليد، رفعناها، حتى السماء

هبط الريس شبيطي

وكذلك الكاتب عبدالرحمن.

23

في صباح اليوم التالي

تزودنا بالمؤونة الكافية

من شحم و لبن خاثر[32]

و ماشية بلا عد

أكباش و عجول

سمينة جداً، اشترينا

ومن كل تلك الشحوم واللبن

ملأوا السفينة.

---

[32] إشارة للبن الجاف الحامض.

24

نزلنا

بعد ثمانية عشر يوماً

في الميناء البحري

لمدينة الإسكندرية

ومن هناك سلكنا الطريق

حتى القاهرة الشهيرة

النبيلة، الكبيرة والعظيمة

إلى درجة أنني لا أستطيع قصّها.

التعليق على الأناشيد من 15 حتى 24

مغادرة جربة ـ العاصفة الكبرى ـ مملكة البركة

الوصول لمدينة الإسكندرية

غادرت سفينتهم مدينة جربة، محملة بعدد كبير من الحجيج والتجار والبضائع الضخمة، لتجرب حظوظها في خليج سرتا المسمى آنذاك بخليج لافورتونا (بحر الحظ، وهو اسم على مسمى)، ربما أتى الإسم من اللفظ البربري (آوشيلا) أو (أوجيلا هيرودتس) المقابلة لمعنى الحظ بلغتهم. لقد عانت السفينة ومن على متنها الأمرين من جراء العواصف البحرية المتتالية.

إن المقطوعات التي تشير للعاصفة وما جرى لهم إثنائها تعد من أكثر الأبيات تفصيلاً و وصفاً على إمتداد أبيات القصيدة الشعرية كاملة. كانت السفينة على وشك الغرق كما يخبرنا حاجنا الرحالة، ولكن بتدبير محكم من قبطان السفينة الشبيطي الذي أمر مساعديه مع المبحرين برمي كل ما يثقل السفينة، فكانوا أن رموا بكل ما حملوه من متاع وزاد. بعد أن هدأت العاصفة واصبحوا بأمان نوعاً ما، كان عليهم القبول بنظام غذائي صارم بإشراف أحد رجال القبطان (إبن عمه) ليوزع عليهم ما تبقى على متن السفينة من غذاء بالتساوي دون أن يفضل أحد على آخر. وعلى ضوء هذا العدل والنظام الصارم وصلوا سالمين حتى مملكة أو بلد (مونتي بركه) التي ربما أراد بها الإشارة لمملكة سيرين الأثرية القديمة وهي مرسى سوسه اليوم وهي التي يطلق عليها ببلد البركه

(مونتيبركة) في مقطع من القصيدة. وصولهم معناه حسب إبتهالات الحاج تم برضى وبركات الله تعالى الذي مَنَ عليهم بالنجاة فشكروه و خروا ساجدين مصلين.

في مقطوعات من القصيدة هناك إشارات للأغذية المتداولة في المنطقة مثل (اللبن الخاثر) وهو على ما يبدو أنها وما تزال غذاءً شعبياً شهيراً، وكذلك ذكر الماشية السمينة التي تنعم بها البلاد والتي تزودا برؤوس كثيرة منها ما بين خرفان وعجول سمينة تقيهم محنة الجوع ونقص الطعام في الرحلة القادمة. كما أن وصولهم للميناء البحري في مدينة الإسكندرية الشهيرة بعد ثمانية أو عشرة أيام من الإبحار يحسبه من اليوم الثاني من عيد الميلاد، أي يوم 26 من شهر ديسمبر، مما يعني أنهم قد دخلوها في 13 من شهر يناير من العام الميلادي الجديد، وبذلك يكونون قد قطعوا ما يعادل 3500 كيلومتر منذ إبحارهم من بلنسية أو 2400 كيلو متر منذ إبحارهم من تونس.

لا نعلم شيئاً عن إنطباعاته عن الإسكندرية وماذا رأى فيها وهل بقوا هناك لفترة من الزمن. لكن على ما يبدو أن الجميع كان مستعجلاً وحريصاً على الخروج من المدينة ما أن أنزلوا متاعهم في الميناء ليتخذوا الطريق البري حتى القاهرة. مثل هذه القفزات الزمنية لا نتفاجأ بها، فقد عودنا عليه الحاج الذي لا نستطيع أن نعمل شيئاً إزائها سوى بما يريد إعلامنا به.

25

بما أنني لا استطيع إحصاء سكانها

فسأحصي الأشياء الكثيرة التي تضم

أكثر من خمس وعشرين ألف مكان عبادة[33]

أعجز عن تسميتها:

والنظم التي يديرونها

روعة بلا مثيل

فهي مضيئة في الليل

كما لو كانت في وضح النهار.

---

[33] هنا يستخدم حاجنا مفردة (Parroquias/ pèrropias) حسب لفظها الآراغوني الذي يشير لمكان عبادة مسيحية، ولعله عنى به وهو ما نعتقده بالمساجد أو المجاميع الدينية حصراً، ففضلنا أن نترجمها بأماكن عبادة وفيها ما أراد من الإشارة.

26

اكثر من ست وثلاثين ألف

مسجداً للصلاة

من الصعب تسميتها

أعدادها كثيرة لا تحصى:

واحد منها يسمى الأزهر[34]

ولها الأكثر عزة

الأكبر في كل القاهرة[35]

الذي يدعى بجامع طولون.[36]

---

[34] الأزهر: وردت بالعربية.

[35] القاهرة: وردت بالعربية.

[36] جامع طولون: وردت بالعربية.

27

الغورية[37] الأنيقة

عن كل ما عداها

من الذهب والمينا

وكل أصناف الزينة:

مشيدة بانتظام

من حرف و تشكيلات و أزهار

من ذهب و فضة رقيقة

وألوان كثر أخرى.

---

[37] ودرت بالعربية ويشير فيها لجامع الغورية.

28

في القاهرة قبر

لواحد من أئمتنا

الذى اسدى بأفضاله

لدين[38] محبوبنا،

وهو الذي يسمى الشافعي[39]

في قبة رائعة

يزورها خلق كثير

في كل يوم.

---

[38] دين: ترد بالعربية.

[39] يريد به قبر الإمام الشافعي، الذي يعتبر من أقدس الأئمة لدى مسلمو الأندلس.

29

زرنا في يوم آخر

سيدة رفيعة المقام

و أسمها نفيسة[40]

إبنة الحسين

ترقد في مقام مهيب

بهيئة حجرة،

هي حفيدة علي بن أبي طالب

ذلك الاسد المغوار.

[40] الأسماء (نفيسة والحسين وعلي إبن أبي طالب) ترد بالعربية.

التعليق على الأناشيد من 25 حتى 29

زيارة القاهرة ـ عظمة المدينة ومساجدها ـ المزارات المقدسة الشهيرة فيها ـ مرقدا الشافعي و السيدة نفيسة

وصولهم القاهرة وزيارة رحالتنا الحاج للمدينة لها من الأهمية بحيث خصص لها هذه المقطوعات الخمس وما يليها من مقطوعات في الأجزاء اللاحقة الأربعة على الأقل من القصيدة، لما كان للمدينة في عهده من عظمة وأبهة ولما وجده فيها من المعمار ودور العبادة ما لم يره سابقاً أو يتخيله.

لعل دهشة الحاج متأتية انه في قريته الإسبانية بوي مونثون وما يجاورها في آراغون، كان قد عاش في زمن محاكم تفتيش صارمة متزمتة منعته من حق عبادته أو من التوجه لمسجد أو جامع، وهو ما يفسر تعلقه بذكر كل ما له صلة بالمعالم الدينية الإسلامية أينما حل. ندرك مما يذكره الحاج في أناشيده بأنه كان قد سمع عن آخرين (أو كان على معرفة مسبقة) بأهم معالم المدينة، أكبر مساجدها وجوامعها التي لا يستطيع إحصائها كلها ولكنه لا يغفل الإشارة لأهم مراكزها الدينية كما عليه (الأزهر) المشيد عام 361 للهجرة بأمر من الخليفة المُعز بالله إذ يقال أنه قد بني بأكثر من 400 عمود من الغرانيت والحجر المستعار من الأبنية الفرعونية المتهدمة أو من الكنائس القبطية القديمة. كذلك يورد ذكر (جامع طولون) المبني عام 265 للهجرة على شاكلة الحرم المكي. إلا أنه يقف باهتمام أكبر مع ما رآه في (الغورية)، ويقصد بذلك الجامع بالإسم

نفسه والذي يعود تشييده للأعوام الأولى من القرن السادس عشر، وعلى ما يبدو أن الحاج قد زاره ولم يمر عليه الكثير من الوقت فوجده بهياً وعظيماً بكل تفاصيل بنائه فلم يغفل منها شيئاً.

من بين ما زاره رحالتنا الحاج هي المراقد المقدسة للأولياء في القاهرة، ومنهم ما عني له بأهمية كبرى هو مرقد الإمام الشافعي الذي يكن له مسلمو الأندلس كل التقدير ويتبعون سنته. كما لم تمر عليه ذكرى زيارته لقبر السيدة نفيسة وإشارته لمعلومات غير غائبة عنه ولا عنا بكونها إبنة الحسين حفيد الرسول، والحفيدة بدورها للأسد المغوار كما يسميه في القصيدة ويعني به الإمام علي بن أبي طالب. الإمام علي ومناقبه وآثاره معروفة ومدروسة من قبل الموريسكيين المتأخرين منهم والأولين، وهناك كتب كثيرة جاءت بالألخيمیادية الأعجمية مخصصة بالكامل لآثار أسد الله المغوار، مما يغني عن كل تعريف.[41]

[41] للمزيد من المعلومات، يراجع بهذا الشأن كتاب (المغازي الموريسكية من ترجمة وتقديم صلاح فضل والصادر عن دار المعارف المصرية).

30

خرجنا نتنزه[42]

من القاهرة، ذات يوم

فمررنا بالسهل الأسفل

في الطريق إلى المطرية[43]

و رأينا في حقل منها

شجرة تين عتيقة

تعود لـ 1700 سنة

وهي في الحقل منذ حينه.

---

[42] دائماً ما يستخدم صيغة الجمع بالحديث عما رآه، ولا بد أنه طوال رحلته كان برفقة واحد أو أكثر من أبناء بلدته، أو على أقرب إحتمال يكون قد عقد علاقات صداقة بأشخاص رافقوه الرحلة، وهو يخرج برفقتهم في أرجاء المدن التي مروا بها.. ولعله أيضاً قد يعني رفيقه نفسه الذي أشار له إشارة صغيرة في معرض بحثهما عن طعام في مدينة تونسية!.

[43] المطرية كما عليه القاهرة يردان باللفظ العربي.

31

لقد إنفتحت لمريم

كي تنقذها

عندما كان اليهود المزيفون

يعدون خلفها لقتلها

هي وابنها

فحملتهما في قلبها،

لهذا تطرح فاكتها المباركة

سبع مرات في السنة.

32

تجولنا ذلك اليوم

في مدينة فرعون،

في تلك الضيعة المنبسطة

بالقرب من المطرية،

فتصادفنا بأحد الأعمدة الشاهقة

والمصبوب من قطعة واحدة؛

يا للدهشة، فبأي حيلة

رفعوه وبأي قوة.

33

مصنوع من أضلع أربعة

مجبولة باتقان،

وله عشر تشجيرات من الأمام

و مشجر من كل طرف؛

كله مزين بالحروف

وكأنها خطت باليد،

لا يعرف قراءتها عربي

ولا يهودي أو نصراني.

التعليق على الأناشيد من 30 حتى 33

جولة في المطرية ـ شجرة العائلة المقدسة ـ الآثار الفرعونية

مازال المقام في القاهرة. وهنا يقوم بزيارات وتجوالات أكثر عمقاً لمعرفة المدينة بشكل أكبر. ولكنه دائماً ما يستخدم صيغة الجمع بالحديث عما رآه، ولا بد أنه طوال رحلته كان برفقة واحد أو أكثر من أبناء بلدته، أو على أقرب إحتمال يكون قد عقد علاقات صداقة بأشخاص رافقوه الرحلة، وهو يخرج برفقتهم في أرجاء المدن التي مروا بها. ولعله أيضاً قد يعني رفيقه نفسه الذي أشار له إشارة صغيرة في معرض بحثهما عن طعام في مدينة تونسية، ورد ذكرها في مقطوعات سابقة.

في أولى جولاته بطريقه إلى (المطرية)، يتوقف طويلاً ليتأمل شجرة العائلة المقدسة وهي الشجرة التي حافظ عليها كل منْ جاء في الحكم، و يعرفونها بكونها الشجرة التي أوت يوسف و مريم وصغيرها عيسى المسيح عندما هربت العائلة الصغيرة من فلسطين خوفاً من ثأر اليهود الذين كانوا يرومون قتل عيسى المبشر بديانة مخالفة لتعاليم اليهود. رحالتنا الحاج لا يخرج عن الحكاية سوى بتعريف الشجرة بأنها شجرة تين ويبدو أنها عملاقة ليتخيل أنها قد أوت في وسطها الهاربين الثلاثة. وحتى لو لم تكن تلك الشجرة حقيقية وأن جل الحكاية من الوهم، فإنها على ما يبدو قد رسخت في عقول الناس خاصة في القاهرة والتي لا بد أن سمعها من الناس هناك. ويضيف على معجزات

الشجرة بأنها تطرح ثمرها سبع مرات في العام بسبب من مباركة المسيح واهله لها. والحكايات الكثيرة عن الشجرة (وهو ما لم يذكرها الحاج) بأن الشجرة قد إنحنت للعائلة وآوتهم في غصن من أغصانها فحسب بحيث لا يصل لهم أحد ممن يتبعهم من اليهود المزيفين ـ حسب قول الحاج ـ أو من قوات هيرودتس حسب الوقائع التاريخية و بتحريض من يهود الناصرة. كما أن المعجزات المحيطة بالشجرة جعلت من بئر بجوارها، مياهه مجة سامة، لتتحول بقدرة قادر لمياه عذبة كان يشرب منها الثلاثة ويشرب منها كل أبناء القاهرة في زمنهم حتى وقت قريب. تخيل الشجرة في زمن زيارة الحاج وتقدير المدة الزمنية للجوء يوسف و مريم والمسيح لها، لا بد أن يكون قد مر عليها ما لايقل عن ألف وسبعمائة عام.

هناك إشارات تاريخية مختلفة عن زمن زراعة هذه الشجرة، وهي على إختلاف بين كبير، ولعلنا نتوصل هنا إلى أنه في الواقع وصلتنا حكيات وتواريخ عن هذه الشجرة ـ الأسطورة، والتي ليس بالضرورة أن تكون الشجرة نفسها، فليس من المعقول أن تعيش لآلاف السنين، ولا بد أن التقليد قد دأب على شتل واحدة مكانها ما أن تجف وتيبس القديمة أو أن تنقل واحدة معمرة مكانها يتم جلبها من مكان آخر. لعل شجرة العائلة المقدسة هنا تذكرنا بشجرة آدم عند ضفاف الخليج في البصرة وما يحكى عنها من حكايات و مواقف جاءت بها الآلاف من المصادر التاريخية والسردية العربية، ولن نقف عند عمرها المديد ولا أساطيرها ومعجزاتها الكثيرة.

كيلو متر واحد يفصل المطرية عن ما تبقى من الآثار الفرعونية التي يصفها الحاج بوي مونثون في قصيدته، وهي مدينة الشمس الشهيرة التي حملت

أسماء مختلفة طوال عصور تعاقب الحضارات عليها، فهي (أون) حسب الكتاب المقدس في حزقائيل، وهي (آنو) حسب الكتابات الهيروغليفية، وهي (هليوبولس) حسب الإغريق والرومان. العمود الشاهق الذي رآه الحاج ووصفه بدقة وقد أثار دهشته الكبيرة، لا بد أن يكون وصفاً للمسلة المعروفة، التي كانت قائمة آنذاك، والتي أمر بنصبها الملك أوسيرت الأول كتكريم للآلهة آنو إحتفاءً بمرور ثلاثين عاماً على توليه منصبه في ظل مملكة طيبة المعروفة تاريخياً.

لقد وقف رحالتنا طويلاً بتمعن هذه المسلة ووصف ما عليها من نقوش ورسوم مضفورة بدقة، وأكثر ما أثاره هي تلك اللغة الغريبة التي يجزم بكل ثقة أنها ليست لغة حديث في زمنه إذ لا يتقنها المسلم ولا المسيحي ولا اليهودي. ربما يكون نص قصيدة الحاج هي واحدة من النصوص القليلة التي تشير للكتابة الهيروغليفية، وتؤكد الجهل بها في فترتها. الإعجاب نفسه يسجله الرحالة الإسباني اليهودي بنخامين توديلا في رحلته السابقة لرحلة الحاج إذ كانت في القرن الثاني عشر الميلادي، ويصف روعة المسلة قائلاً أنه " لم ير فناً رائعاً كهذا، ولم يلمح شيئاً يشابهه في العالم أجمع".[44]

هنا يحصل قطع آخر أو ربما نسيان من قبل الرحالة، فليس هناك أي ذكر لآثار أخرى أو معالم يكون قد رآها في طريقه أو توغله في المنطقة كالأهرامات أو أبو الهول فهي بعظمتها وكبرها ترى على بعد آلاف الأمتار في بقعة صحراوية خالية من أي عائق. نكاد نعتقد أن الحاج لم يقم بجولات

---

[44] أنظر رحلة بنخامين دي توديلا بالإسبانية:
Libro de viajes de Benjamín de Tudela, Barcelona, 1982, p. 118.

بعيدة، و اقتصرت زيارته للقاهرة على التواجد مع أصحابه، الصلاة في مساجدها والجولات البسيطة في أحيائها والتمتع بأطعمتها ومناظرها الخلابة. لأنه بعد ذلك سيغادر القاهرة ضمن قوافل الحج ولا يعود لأي ذكر لها.

34

من القاهرة قدِمَ الأمير[45]

محروساً من جماعته

وقرب إحدى البُرَك

أمر بنصب الخيام:

لثلاثة أيام بلياليها

كان يخدم البشر

الذين لم يتوقفوا عن القدوم

في الليل كما في النهار.

---

[45] القاهرة و الأمير و البركة: ترد بالعربية.

35

خمس وعشرون جملاً مطهماً

تمضي أمامه

مثقلة بالجواهر الثمينة

لكي يشير لسلطته العظيمة؛

مثبتة ظهورها بالمساند

المغطاة بالأردية

بعضها من الحرير

وأخرى من الخيوط المذهبة.

36

البشر الذين قدموا

شيء لا يعقل

إذ يزيدون على مائة ألف شخص

أو هذا ما أعتقده

لتنظم لنا قافلة حلب[46]

مع ما فيها من مناطق الجوار

لنمضي بطريقنا

بشر بعظمته كثير.

---

[46] حلب: ترد بالعربية.

37

من هناك مضينا برحلة الحج،[47]

وهي قافلة كبيرة على اية حال

من رجال و نسوة

و جمال لا تعدْ؛

نسير بطريقنا

بين الجبال و الوهاد

و بين الرمال المتحركة

ليلاً كان أم في النهار.

---

[47] الحج: ترد بالعربية.

38

بأبواق و تنظيم

يمضي جيش من البشر

محاط بالجند

لنتوغل عبر الصحراء

ممتطين جمالهم المزينة

يمضون بين الروابي

برفقة أربع مدافع ضاربة

يحرسها رجال مسلحون.

39

أخبركم بما رأت عيناي

في المرتفعات او في الروابي

عن الأراضي التي وطأت

وعن الجبال الموحشة:

رأيت الأنبياء مدفونين

بإبهة عظيمة،

الذين مجدوا الله

وكانوا من الظافرين.

40

أن تتمعن فقط

بكل تلك الاجساد الهائمة

ممتلئين بالغبطة

و بسعادة لا تعادل

بينهم لا أثر لدناسة

ولا لأي تجديف

هكذا في الضيق كما في الوسع

دائماً ما تمضي راضياً.

41

توجهنا إلى مكة

هذه المدينة المقدسة[48]

التي بأبوابها البركة

و بجدرانها الرحمة؛

في أغطيتها الإنكشاف

وبها كلها التبريك،

كل منْ إليها ماض

فقد حاز على المغفرة.

---

[48] الحاج يستخدم نفس الكلمة (البركة) مرة بالإسبانية وبعدها بالعربية، فضلنا بدلا عنها (مقدسة) للتغيير ليس إلا.

42

و خرج الشافي[49]

لإستقبال أمير القافلة[50]

وكان إستقبالاً فخماً

من الصعب الحديث عنه:

بالمزامير والطبول خرجوا

وجمع غفير من الفرسان،

كم كان عظيماً ذلك اليوم

الذي شهدنا فيه أشياء كهذه.

---

[49] يقول الشافي (Xafi) ويعني به الشريف أو شريف مكة الموكل بالإستقبال الرسمي للقافلة.

[50] بعد أن ذكره بالعربية كأمير للقافلة في المقطوعة 34 يعود لذكره في المقطوعات اللاحقة بوصفه القبطان (Capitán)، ونحن أبقينا على ما ذكره بكونه أمير القافلة توحيداً للمعنى، وإن كان يراد به الشيء نفسه.

43

خرجوا لنا بعظمة

مكللة جيادهم بالمجوهرات

بالحُليِّ والمصوغات،

ذلك أنه شيء لا يصدق:

بالهتاف و صياح

النصر الذين يهجسونه

بالمزامير و الطبول

التي أرعدت البشر الغفير.

44

كل البشر ترجل

بحبور كبير

وبوقار لا مثيل له

تعانق الإثنان:

بتواضع سلما على بعض

بكل تقدير و إحترام،

بأفعالهما أثبتا حقاً

أنهما من معدن السادة.

45

فسلمه الأمير

الجمل المكلل،

وهو بدوره برصانة

بعيداً عن الخيلاء

كإنسان نبيل

أثبت عبرها عن عظمه،

رضخ ماداً يده

لتسلم قياد الجمل.

46

تعالت أصوات المزامير و الطبول

في الجبال و الوهاد

و تصاعدت دهشة البشر

مع وقع الطبول:

و ذرفت الناس

دموع الفرح

عندما اقتربوا من باب السلام[51]

بوابة البيت الموقر.

[51] باب السلام: ترد بالعربية.

التعليق على الأناشيد من 34 حتى 46

قافلة الحج القاهرية

وصف عظمة القافلة واميرها ـ الوصول لمكة

في هذه المقاطع يصف حاجنا الرحالة الفترة الزمنية منذ خروج القوافل فيهم من أطراف القاهرة، عند نقطة الإلتقاء المعروفة (بُركة الحج) حتى الوصول لمشارف مكة وإستقبال شريف مكة للقافلة وأميرها.

بسبب من أوضاع المشرق المتردية آنذاك، فقد برز الرحالة المغاربة للديار المقدسة وما كتبوه ونقلوه لنا عن تلك التي تعد لفترة قريبة مغامرة بحد ذاتها. يبرز هنا مجموعة من الرحالة المغاربة للديار المقدسة مثل إبن جبير ومحمد بن محمد الحيدري (لقرن الثاني والثالث عشر الميلادي) ومن بعدهما عبدالله المراكشي العياشي (القرن السابع عشر)، وقد تمثلت رحلاتهم بتقديم المواعظ والحكم والأدب والدعوة إلى الإيمان والتصوف ولم تعد تهتم بالمدن وصورف الناس وأهوائهم والإختلافات ما بين قوم وآخرين، وهنا لا يختلف إخوتهم الأندلسيين بالمضي في نفس المشوار كما عليه رحالتنا الحاج. وإن كان لزاماً علينا التأكيد على خصوصية رحلة إبن جبير لتنوعها و مواضيعها الأدبية والإجتماعية المختلفة عن الرحلات الأخرى.

يحدثنا الحاج بوي مونثون في هذه الأشعار عن لحظة إنظمام أمير الحج عند البركة المسماة بـ (بُركة الحج) وهي موقع تجمع الحجيج قبل أن يشدوا الرحال في طريقهم إلى مكة المكرمة. هناك وصف لعظمة وأبهة موكب أمير الحج

ليمنحنا فكرة عن قداسة قائد الحملة و عظمة رفقته، فقد جاء بفريق كامل من المساعدين يحملون الهدايا والتحف الثمينة والأردية الحريرية المذهبة على 25 جملاً إضافة لدوابهم الأخرى المرافقة. يستقر الأمير ومساعدوه في خيمتهم كما ينصبون خياماً أخرى لإستقبال البشر القادم من جهات مختلفة إستعداداً للمضي معهم حتى مكة المكرمة. ويصف كرمهم وخدمتهم ليل نهار للحجيج. هنا يذكر قدوم قوافل أخرى كما عليه قافلة الحجيج الحلبية والمناطق المجاورة لها. خلال ثلاثة أيام يتصبرون لقدوم الكم الهائل من البشر الذي سيمضي برفقتهم وهو يعدهم هنا بأكثر من (مائة ألف نسمة) أو تزيد وهو رقم على أية حال في إشارة إلى رقم هائل لا حد له.

ينتقل حاجنا مباشرة لوصف رحيل القوافل من البشر الهائل والجمال والدواب دون توقف ليل نهار يقطعون الوهاد والصحارى والجبال، يمرون بين الرمال المتحركة، متكاتفين نساء ورجالاً. وهو لا ينسى أن يشير للتنظيم الهائل للقافلة الكبيرة وحراستها، هناك حرس يتنادون فيما بينهم عبر الأبواق، كما أنه هناك حشد هائل من الجند، وهو لا ينسى أن يشير إلى أن القافلة كانت تحرسها أربعة مدافع ضاربة خشية هجوم اللصوص والقبائل الصحراوية الخارجة عن القانون، وهناك حوادث عديدة أشار لها رحالة عرب واجانب ذكرت العديد من حالات الإعتداء على قوافل الحجيج في أزمنة وعصور مختلفة، وإن كان على ما يبدو أن قافلة حاجنا الموريسكي لم تتعرض لمثل تلك الهجمات.

بعد حين وعلى ما يبدو أن القافلة قد قطعت شوطاً طويلاً من رحلتها المقدسة يختصرها الحاج بوي مونثون بالقول بأنه قد قطع الجبال الموحشة والصحارى والوابي والمرتفعات الهائلة مما رأته عيناه. ثم يعرج على ذكر ما

شاهده من قبور وشواهد الأنبياء المدفونين في تلك الأماكن، وهو لا يحددها هنا ولا يصفها بقدر ما يعنيه أن يشير لقداستها و عظمتها وقد ظفرت بأمجاد الرب الأعلى، منتشياً وسعيداً سعادة لا توصف رغم الضيق و مشاق السفر وهو يدرك حظوظه بالمرور في هذه الأماكن المقدسة التي سمع عنها من ذويه.

يطفر مباشرة بعد ذلك للحديث عن غرض القافلة النهائي وهو الوصول إلى الأراضي المقدسة في مكة المكرمة التي يصفها بكونها السبق الأكبر، إذ بأبوابها البركة وبجدرانها الرحمة. هناك يصف لنا كيف يتم إستقبال القافلة من قبل الشافي (شريف مكة) برفقة فرسان عدة بكامل زهوهم وروعة أزيائهم والأبهة التي عليهم، خرجوا بالأبواق والصفير والمزامير ليعلنوا فرحتهم الكبرى بالجمع الجديد من أخوتهم المؤمنين، الهتافات العالية والأبواق هزت مشاعر الجمع ومن بينهم الحاج الرحالة ليصفها لنا عبر مقطعين كاملين من مقطوعات القصيدة. شريف مكة يخرج لإستقبال أمير القافلة، يتعانقان كما يليق بعظمة كل واحد منهما وبوقار وتواضع المسلم. هنا يسلم أمير القافلة الجمل المطهم بكل ثقله والجواهر التي يحمل، يسلمه لشريف مكة الذي يتقبله بكل تواضع. بعد ذلك تتعالة الصرخات والتهليل وهتافات الفرح بين الجميع وهم يدركون أنهم قد وصلوا أخيراً بوابة السلام المرجوة والتي عانوا الويلات والصعاب طوال الطريق كي يصلوها بأمان ويتمعنوا رونقها و قداستها. إن مسألة قرع الطبول والمزامير والتهليل والتصويت لا بد أنها كانت عادة متبعة حتى وقت قريب، ولدينا أكثر من شاهد عليها ما ذكره لنا رحالة مسلمون زاروا مكة المكرمة وشهدوا ذلك بأنفسهم وكتبوا فيها ومن بينهم أبن بطوطة.

47

أحدثكم عن البيت[52]

التي في مكة كما يقال

وعن النظام

وما تحدثه من أثر:

بيت ذو قيمة

بيت ذو نبل

من ذهب وفضة وثراء

لا يمكنني تقديره.

---

[52] كلما وردت كلمة (البيت) إنما يشير بها لـ بيت الله الحرام .

48

هناك تستقر محاريب أربع

بعدد مذاهبنا:

كذلك اربع منارات

شاهقة، رائعة و مدهشة؛

الأربع منها

بعدد أئمتنا الأربع[53]

فضائل البيت بالآلاف،

أشياء خارقة لا توصف.

[53] الأئمة الأربع: قد يعني بهم الخلفاء الأربع أو تأكيد على أئمة المذاهب الأربع.

49

والخامس منها هو التالي

حيث يستقر زمزم[54]،

وهي الأولى

التي ينادى فيها للصلاة[55] :

والتي فيها يتم الشفاء،

الأشياء التي تصنع فيها

والتسبيح الذي فيها يذكر

يتعجب لها البشر.

---

[54] زمزم: ترد بالعربية.

[55] الصلاة: ترد بالعربية.

50

الكعبة و الحرم[56]

مشرعتان للهواء الطلق،

وجانب منها أكبر

بالطبع من البيت،

ما عدا كسوة غالية الثمن

إذ يحيطه

سبعمائة من الأعمدة

مستندة بأغطيتها.

---

[56] الكعبة و الحرم: تردان بالعربية.

51

تسعمائة مصباح

تضيء هذا البيت،

وعليها يسهر كل البشر

طوال الليل؛

أبداً لا يتمللوا

من أن يطلبوا

و يرجوا ملك السموات

أن يمنحهم المغفرة.

52

عن هذا البيت البديع

الذي في وسط المدينة يقع،

محاط بأبواب رائعة

و العديد منها في كل جانب؛

تسعة وثلاثون في الحقيقة

هي البوابات المؤكدة،

والتي حولها يدور البشر

داخلين خارجين.

53

ماذا أقول لكم عن الكعبة

و عن عراقتها،

ذهب و فضة وثراء

مما يعيني وصفه.

مزدانة بالأغطية الثمينة

من الحرير الدمشقي،

و مرصعة بالفضة الرقيقة

و بوابتها تامة الإتقان.

التعليق على الأناشيد من 47 حتى 54

الطواف بمكة ـ البيت الحرام ـ زمزم

بعد أن يكون الحجيج قد وصلوا بوابة السلام وقد إستقبول إستقبالاً رائعاً ومبهجاً وقد ذرف الجميع الدموع إبتهاجاً بالوصول وتشكراً لنعمة رب السموات، ينقلنا الحاج بوي مونثون ليحملنا معه لمعاينة المدينة والأشياؤ التي رآها فيها. يحدثنا عن بيت الله الحرام وهو يزوره ويراه للمرة الأولى والدهشة تعقد لسانه بما يراه من نظام وكيف تمضي أمور إدارته وكذلك عن ما يحيطه من ثراء وأكسية من الذهب والفضة بشكل لا يستطيع فيه رحالتنا وصفه سوى بأنه (لا يمكن تقديره!).

يحاول الحاج أن ينقل لنا صورة تقريرية عما رأته عيناه في تجواله في البيت الحرام من الخارج ومن الداخل. يراقب المحاريب الأربع بعدد المذاهب الأربع، والمنارات الأربع التي ربما يشير بها للأئمة الأربعة أو للخلفاء الأربعة، وقد تبدو إشارة غامضة وإن عنى بها ما معنى فهو يؤكد على فكرة تواجد المذاهب الأربعة آنذاك سوية في شعائر ومراسيم الحج. هناك أشارات تؤكد إن المذاهب الأربعة كانت تقوم بشعائرها بحرية دون تقديم مذهب على آخر، وهذه قد أكد عليها إبن بطوطة أيضاً، وهناك إشارات واضحة تماماً لأبن جبير في رحلته الشهيرة وهو يؤكد على أن (لا إسلام إلا بالمغرب) وهو السبب الذي دعا إبن جبير لقول ذلك بعد أن رأى تعدد المذاهب في مكة

وتضارب سلوك أبنائها في أداء الشعائر ببيت الله الحرام، وذلك مقابل سيادة المذهب المالكي في المغرب. إن ما رآه رحالتنا الحاج عن صلاة الحجيج كل مع إمام مذهبه، وما وجده رائعاً وجديراً بالتقدير والعظمة، كان يراه الرحالة المغاربة آنذاك ومنهم إبن جبير نقصاً بالإيمان وإبتذالاً صريحاً.[57]

يذكر الحاج إن هناك محراب خامس حيث يستقر بئر زمزم المقدس، وهو المكان الأول للصلاة من قبل الحجيج. ولعله أراد أنه المكان الأول للتبرك والإستسقاء من مياهه، لأنه يشير لمسألة الشفاء من كل علل وذلك بالشرب منه. لعل الرحالة إبن صباح في حادثة مهمة عن بئر زمزم يلخص تماماً تلك الفكرة الشائعة عن قدسية وفضائل مياه زمزم، إذ يذكر الحادثة التالية في رحلته: (ولقد مرضت في هذا الحرم أول مجاورتي، وحلفت أن طوال ما يقضي الله لي بمجاورتي لا أشرب ماء غير ماء زمزم، فدخل يدي ونحل جسمي حتى لم يبق إلا الجلد على العظم، فحبسني ربي مألوماً ستة وأربعين يوماً حتى أشفاني الله، وطابت نفسي بالماء والهواء، وصرت نشربه غدوة وعشية وكل ساعة يخرج من البئر ساخناً كأنه اللبن.)..ولما أراد ابن الصباح توديع (مكة) شربه بنيّة حفظ القرآن، قال:(فحفظته... وشربته لتوقي العطش وسافرت في البراري أزماناً وماتوا وأنا لم نر بأساً.).[58] نفهم من وصف الحاج بأن الحرم والكعبة في فضاء خال لا يحيطهما شيء،

---

[57]إبن جبير: رحلة إبن جبير، دار صادر، بيروت، 1964.
[58] أنظر رحلة إبن صباح المعنونة (منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار).

مكان رحب لدخول وخروج الحجيج، مجرد تماماً سوى من كسوة غالية الثمن، وهو عرف نفهمه تماماً وتقليد متبع ونعلم أيضاً أن العديد من قوافل الحجيج كانت تجلب سنوياً كسوة جديدة من الحرير الدمشقي مطعمة بالذهب والفضة (هو يصفها و يقف حائراً لأنه لا يجد الكلمات المناسبة لروعة ما يراه)، وسبق أن تم ذكرها من بين هدايا قافلة القاهرة وإن لا تعني إنها الكسوة نفسها. يحيط الحرم أكثر من سبعمائة من الأعمدة الضخمة، ولعله رقم تقريبي أراد به الحاج الإشارة للعمارة الهائلة للأبنية المحيطة به، وهي نفس الإشارة لعدد المصابيح التسعمائة التي تضيء البيت وما يجاوره طوال الليل ويقوم على خدمتها عمال عدة، كل ذلك يتيح للمؤمنين الإقتراب في كل الأوقات للصلاة والتمعن بقدرة الله ومعجزاته وطلب مغفرته. يعدد لنا أيضاً الأبواب الـ 39 التي تحيط بالبيت الحرام الذي يتوسط المدينة، والتي يدخل ويخرج منها الحجيج في كل أوقات اليوم.

من المؤكد أن ابن الصباح كان من المحظوظين الذين دخلوا الكعبة، حيث يقدم وصفاً لها قائلاً: ارتفعت الكعبة من الأرض قدر طول الرجل، نطلع سبعة دروج من ألواح تنقل وترد، وباب الكعبة الشريفة متوسطة فيما بين مطلع الشمس في الشتاء والصيف، بابها من عود اليبانوز (الأبينوس) ملبس بالنحاس الصيني، مذهّب بماء الذهب، مغلق سائر الأيام إلا يوم الجمعة المباركة، يفتحونه بنو شيبة خدام البيت الحرام، يدخلونه الرجال، يركعون فيه. وداخله مفروش بالمرمر الملون، والحيطان بأنواع البلاط وألوان المرمر، عليها من داخل البيت حلة حمراء مرصعة من الحرير الأحمر، مرصعة بالذهب

الملون، وأنواع فيها من الذهب على صورة سنبلة الصنوبر، وسقفها باللوح والمسمار، والسطح المبارك بجص الجير والرمل المحمّر، في السطح أربعة مضاوي (ثقوب لإدخال الضوء) مثل مضاوي الحمام، قدر كل واحد الأفل الأكبر، تعمل ضوءاً للبيت مثل النهار..الخ.

54

وماذا أقول عن الصلاة

مثلما كان منظم لها

كل مذهب بجماعته

تقام حسب مكانتها:

يرفع للصلاة

بالقرب من المقام[59]

ومن ثم واحداً بعد الآخر

يحيون بتحية السلام[60].

---

[59] المقام: ترد بالعربية، ويعني به (مقام سيدنا إبراهيم).

[60] السلام: ترد بالعربية.

55

كل واحد يصلي

بجماعته،

بينما ينتظر الآخرون

دورهم ما أن يقدم.

الشافعي أعظمهم

و أبو حنيفة من بعده

من ثم مالك شفيعنا

و الحنبلي يليه.

56

أما الجمعة، فهم يوم عظيم

صلاة الظهر

الشافعي إمامنا

الذي يئمُ بالصلاة:

السيف باليد

والبيارق ترفع

كل يحيط به

و معه المذاهب الأربع.

57

الشافعي يؤذن للصلاة

جماعته التي عند الغرب

و أبو حنيفة في الوسط

بكل دقة في مكانه:

بينما مالك شفيعنا

إلى الجانب الخارجي

و الحنبلي هذا الشفيع

يلي الجموع.

التعليق على الأناشيد من 54 حتى 57

العبادة والصلاة ـ المذاهب الأربع ـ عظمة يوم الجمعة

في هذه المقاطع الأربعة يركز حاجنا الرحالة على الصلاة في مكة المكرمة، وهو وإن أشار لها في المقاطع السابقة، فإنه هذه المرة يركز كل إهتمامه حول هذه التقاليد التي تبدو له فريدة من نوعها. يذكرها لنا بالتفصيل، وهو يعدد المذاهب واحداً بعد آخر، مؤكداً على مذهبه الشافعي. يقول لنا بان كل مذهب يلي الآخر في الصلاة عند البيت الحرام، وهو تقليد متبع ويتحرم من كل جماعة دون أن تعتدي على وقت ولا حرية المذهب الآخر.

هو يذكر لنا المذاهب الأربعة الرئيسية الشافعية والحنبلية والحنفية والحنبلية، كل في ترتيب مقدر من قبل كل جماعة، وما أن ينتهوا حتى يبادر الواحد الآخر بالتحية والسلام، دون إعتبار للإختلاف فيما بينهم. وهو لا ينهي ذكره لذلك دون المرور على يوم الجمعة العظيم للصلاة، مراقباً البيارق التي تشير لكل مذهب، ناسها تحيط ببيرقها وبإمامها دون تصارع ولا تزاحم، معظمين الله ويومه المقدس للصلاة.

58

منْ يرغب بتدوين ذلك

لن يستطيع الإنتهاء

ولا أية كلمة أخرى يقول

و لا يستطيع أبداً أن يحكي

عن بيت بهذا الكمال،

و الأشياء التي تضمها

عريقة، كبيرة، ثرية و رائعة

لا مثيل لها في العالم أجمع.

59

هناك زرت الكعبة

و تنعمت بالحرم

تقربت من الحجر الأسود

من الزاوية و المقام

و بئر زمزم؛

تلك المياه الحقيقية

التي للخطيئة مطهرة

و كذلك للنسيان.

60

زرت التي لها شأن كبير

أردته قولاً رائعاً،

زوجة محبوبنا

والتي أسمها خديجة

إبنة لخويلد،

ممجدة من الجبار

ترقد مدفونة

في حجرة رائقة.

61

رأيت وقد قربت الصلاة

و قد نودي لها،

في جانب من المدينة

الذي يسمى الحيزن؛

و رأيت دار النبي

يا لعظم الدار

وهي دار خديجة

زوجته الأولى.

62

و دار أبو بكر

الفارس الشهير،

و دار علي

هذا الصنديد المجرب؛

بل أكثر، فقد رأيت المطحنة

التي كانت تطحن بها فاطمة،

شيء يثير السلوى

و سعادة لا حد لها.

التعليق على الاناشيد من 58 حتى 62

وصف الحجر الأسود ـ قبر خديجة ـ بيت الرسول

يصف لنا رحالتنا ما رآه مذهولاً من عظمة وروعة البيت الحرام، والذي لو كرس كل وقته لتدوين ذلك لما إستطاع ولا أي وصف أو كلام يفي حق ما شاهده من إعجاز الكعبة والأشياء العريقة الثمينة التي تضمها والتي لا مثيل لها في العالم أجمع على حد قوله.

يزور الكعبة ويتنعم بالحرم، يقترب من الحجر الأسود والمقام الكريم، ولا ينسى أن يعيد ذكر بئر زمزم مرة أخرى والتأكيد على مياهها الشافية المطهرة من النسيان ومن الخطيئة. ثم يريد التأكيد على أنه قد زار مرقد السيدة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول التي مجدها الرب الجبار وكان أن إختار لقبرها حجرة مباركة. كما أنه يشير لرؤيته دار الرسول وزوجه خديجة وقد كان بالقرب منها عندما نودي للصلاة. كما أنه لا ينسى أن يقول لنا بأنه قد تمكن من رؤية بيت صديق الرسول والخليفة الأول للمسلمين أبو بكر الصديق (الفارس الشهير) وكذلك دار علي بن أبي طالب (الصنديد المجرب) ولا بد أنهما كانا قريبين من دار الرسول. ولعله لا ينسى الإشارة (وإن بدت غريبة ولكنها لمحة حياتية ولقطة تصويرية رائعة) للمطحنة التي كانت تستخدمها إبنة الرسول فاطمة أو هذا ما تراءى له أو فهمه من حجر الرحى الذي رآه، وقد أسرته كل تلك المشاهد بشكل لم يتوانى عن الإشارة والتأكيد عليها.

63

زرنا جبالاً عديدة

وشعابها الكثيرة

كذلك كنت عند جبل أبي قبيسة[61]

الذي رضخ له القمر،

و صعدت جبلاً آخر

يجلب كل السلوى

و فيه تم شفاء قلب النبي[62]

من كل سوء.

---

[61] أبي قبيسة: وردت بالعربية.
[62] النبي: وردت بالعربية.

64

وهي السورة التي وصفت

النبي و رفاقه،

ذلك اليوم الذي تبعه

اعدائه الفرسيين:[63]

فمضوا حتى صخرة مشقوقة

من حجر كالزجاج

هناك بجوار القطعة

التي قصها جبريل بيده.

[63] ترد هكذا (الفرسيين) وربما عنى بها (القرشيين) أو بني قريش.

65

و في جبل عرفات

نعثر بالرفات،

حيث أبوينا،

آدم وحواء قد التقيا

عندما طردا من الجنة

بسبب خطيئتهما،

وفي الجبل نفسه

ولد لهما أبناء وبنات.

66

وفي جبل منى

وفي المكان عينه

عندما مضى إبراهيم

ليضحي بإبنه؛

وفي الأمكنة نفسها

عندما ظهر لهما العدو

كي يحيدهما عن نيتهما

هو وأبيه إبراهيم الصديق.

67

و مررنا بالوادي

هناك حيث إنهزم

أصحاب الفيل[64]

لأنهم كفروا بنعمة ربك

فأرسل لهم الله طير الأبابيل

لترجمهم باللعنة،

وحيث النبي إدريس

إذ إرتقى للسماء.

---

[64] ترد بالعربية، مثلها أسماء الأنبياء.

68

وكنا في المدينة

عند نبينا الكريم

بتاريخه المبهج،

مدفون في مسجده،

مرافقاً

برفاتين حميمين

رافقاه في حياته

كم رافقاه في مماته.

69

هناك بعد أن انتهت الهجرة

وفي داخل قبته،

أبو بكر بجواره

و عمر بقدره

منة من الله العلي

الذي منحه هذا الفضل

وكلاهما الرفقة الطيبة

و العظمة للدين.[65]

[65] الدين، مثلها أبو بكر و عمر و الله ترد بالعربية.

70

وعند قدمي النبي[66]

هناك ترقد المقدرة

فاطمة زوج علي

في المجد ترفل

الإبنة المعصومة

للنبي المبجل

الذي وجب رجائه

بأن يكون شفيعنا.

[66] النبي كما عليه فاطمة و علي ترد بالعربية.

71

و بحضرته هناك

وإن كان خارج القبة،

في الداخل من المسجد[67]

مدفون بعظمة

ذلك الجسد المتلألئ

لشفيعنا مالك،

والذي هنا أو في كل الغرب[68]

هو ولينا.

---

[67] المسجد مثل مالك و كلمة الغرب ترد بالعربية.
[68] إشارة لإسبانيا من خلال لفظ الغرب.

72

أما إبراهيم الأمين[69]

فمدفون في الخارج،

الإبن البار

لنبينا الكريم:

فقد حمله الله

أبيض نقياً

إذ كان مباركاً

على الرغم من موته طفلاً صغيراً.

---

[69] إشارة لإبراهيم إبن النبي الذي مات رضيعاً.

التعليق على الأناشيد من 63 حتى 72

وقائع تاريخية ـ قبر الرسول وأهله ـ أماكن مقدسة

يعود في هذه المقاطع الوصفية ليخبرنا برحلاته الجماعية (يعود للحديث بنحن) لزيارة جبال وشعاب قريبة من مكة. يذكر جبل أبي قبيسة الذي رضخ له القمر وشفي فيه قلب الرسول من كل سوء. الكتب العديدة التي وصلت لنا من آثار الموريسكيين الدينية، تركت لنا إنطباعات عن العديد من معتقداتهم الشعبية البعيدة كل البعد عن الحقائق التاريخية، وهي معتقدات زخرت بالكثير من الوقائع غير المنطقية والتي طبعت آدابهم ومعارفهم الدينية ومنها تهويل الأشياء ومنحه إنطباعاً أبعد من حقيقته، وإن كان لا يغالي كثيراً. [70] من بين هذه الأشياء وغيرها ما يرد في هذه المقاطع وغيرها الكثير. يصف لنا الجبل الذي لجأ له النبي بعد أن تبعه أعداؤه (من الفرثيين) وفيه أنقذه الملاك جبرائيل بأن قطع الصخرة التي سيختبئ في شقها الرسول وصحبه.

يشير لجبل عرفات ويعرج على قصة آدم وحواء وكيف إن رفاتهما ما زال هناك وقد رآه هو ورفاقه، حيث كان مازال قائماً منذ أن هبطا من الجنة بعد أن طردهما الله بسبب من خطيئتهما المعروفة بمعصية الرب، وهناك يشير حاجنا أيضاً قد أنجبا أبنائهما. ومن هناك يذكر ايضاً مروره بجبل منى حيث أراد

---

[70] ينظر بهذا الشأن كتاب الباحثة لوثي بارلات المعنون (آثار الإسلام في الآداب الإسلامية) الصادر عام 1985.

النبي إبراهيم أن يضحي بإبنه. ثم يسرد علينا كيف مر هو ورفاقه بالوادي المعروف الذي أنهزم فيه أصحاب الفيل بعد أن كفروا بنعمة الله وقد أرسل لهم عقاباً طير الأبابيل لتلعنهم هم ونسلهم، وهو الوادي نفسه حيث إرتقى النبي إدريس للسماء كما يخبرنا الحاج بوي مونثون.

يمر صاحبنا الحاج بالمدينة حيث يزور قبر الرسول مدفوناً في مسجده المعروف بإسمه وبجواره رفاتين لصاحبيه اللذين لم يفارقاه في حياته كما في مماته وهما أبو بكر و عمر، وكلاهما رفقة طيبة وتعظيماً لكلمة الله وإعلائاً للدين. ويؤكد تأكيداً قاطعاً على أن رفات فاطمة إبنة الرسول المعصومة يرقد عن قدمي الرسول والتي منهما يترجى الشفاعة. ثم يذكر رؤيته لقبر مالك وإن لم يكن ضمن حيز قبة الرسول، إلا أنه في مدفون في الداخل من المسجد، وهو لا يتوانى عن تذكيرنا بكونه وليه وشفيع أخوته في بلاده التي ترك في الأندلس. ثم يضيف في الأخير بأنه هناك أيضاً قبر إبراهيم الرضيع، إبن الرسول، الذي مات صغيراً نقياً طاهراً وقد إصطفاه الله لجواره.

لا يمكننا المرور على هذه الأخبار والرؤى التي نقلها لنا الحاج دون أن ندرك على وجه اليقين بأن كل توصيفاته صحيحة وإن جافت المعقول من الأمور، لاننا نعلم اليوم علم اليقين بأن الكثير من البيانات التي أشار لها حاج بوي مونثون لا تعد أكثر من أمنيات أو معلومات توصل لها هو بنفسه دون أدلة حقيقية على تواجدها الصحيح أو أنه قد مر بها فعلاً. لعل معلوماته مظللة أو من وحي ما سمعه عن آخرين أو ما خزنه من منقولات الأندلسيين المتأخرة المبنية جلها على الأساطير الشعبية، أو لعلها ما بين هذا وذاك.

73

أخبركم أن أكثر ما رأيت

شيء يمنح السلوى

فقد رأيت نور النبي

صاعداً حتى السماء.

هناك بلا وجل

يتضرع الجميع بالتسبيح

طالبين الغفران

ليوم الحساب الأكبر.

74

مواضع مقدسة كثيرة

زرنا وكلها مباركة

في المدينة كما في مكة

في الجبال كما في الوهاد،

إذ في أزمنة ماضية

أظهرت روعتها،

وهو ما وجدناه

فالسلوى فيها بلا اية شائبة.

75

عندما رحلت راجلاً

من الأرض المباركة

تحطم قلبي

ويعلم به الله الحق

مغادراً الرسول

شطر قدري،

فأموت وأحيا

هذا الألم الجدير بالشفاعة.

76

لقد حز في نفسي ألا أزور القدس[71]

هذا البيت المقدس

بيت كل الأنوار

و البركة[72] والشكر العظيم،

كماله من الروعة

أن المسلمين والنصارى

يحجون له طلباً للمغفرة.

---

[71] القدس ترد بالعربية.
[72] بركة ترد بالعربية.

77

وبعيداً من هناك، الوادي

إذ هنا حسبما قرأنا

الجميع بمعاصينا

سنلتقي من جديد

وكلنا ننشجُ

بسبب من زللنا و خطيئتنا،

فيا ترى ما يفعل الخطاة

الذين لم يؤمنوا بالله؟

78

هناك رجال ونساء

سنحشر كلنا

بأعمالنا التي أرتكبنا

سنحاسب عليها

ولا أحد سيظلم

إلا بالقسمة الحق.

مثلما كانت عليه أعمالنا

هكذا سيكون نصيبنا.

79

ومضيت حتى مشارف الجبل

المسمى طورسينين

فأحسست ثقلاً في أحشائي

فلم أستطع الصعود:

هناك حيث التقى موسى

مع الله لقاء حق؛

فيه أتخلص من خطيئتي

و أطلب من الله الغفران.

(تمت القصيدة)

التعليق على الأناشيد من 73 حتى 79

تضرعات الحاج ـ طور سينين ـ ختام الرحلة

ينهي حاجنا في هذه المقاطع الأخيرة ما يشير لنقائه وتوبته وأنه يرغب وحسب من الله أن يجازيه خيراً على أعماله وأن يمنحه السلوى والرضوان. لذا عبرها نكتشف رغبة المؤمن الحاج بين يدي الله متضرعاً شاكياً.

في المقاطع الأخيرة يعيدنا الحاج لمسألة التسبيح والإيمان الذي من أجله قد قطع كل هذه المسافاة، وهو بقلب خاشع يذكرنا بأن أكثر الأشياء روعة مما رآه هو رؤيته لنور النبي صاعداً للسماء، والجمع الهائل من البشر وهو من بينهم يتضرع ويسبح طلباً للمغفرة في يوم الحساب عندما يلاقي العبد ربه. وهي إشارة أكثر منها رؤية واقعية لوصوله وقبوله المنقطع لقدره وقدرته المؤمنة.

لقد زار والحشد الهائل من الحجيج أماكن مقدسة مباركة سواء في الجبال أو في المدن وكلها ألهمتهم الصبر والسلون. وعندما هموا بمغادرة هذه الأمكنة الحبيبة عليهم، شعر وكأن قلبه قد تفطر وتحطم لأنه لم يرغب أبداً بمغادرة هذه الديار المباركة، فهو يحيا ويموت من هذا الألم الجدير بالشفاعة. ولا ينسى أن يتأسف لأن لا الوقت ولا الظرف قد ساعداه على زيارة البيت القدس ليتم بهجته وسروره بالتقرب من هذا الصرح الكريم والذي يجله المسلمون والنصارى.

يشير في الختام بأنه هناك في الوادي سيلتقون مجدداً ينشجون بالبكاء طلباً لمغفرة الله، كلهم سواء بسواء رجالاً و نساءً، يخشع المؤمنون طلباً للغفران (فما بال العصاة إذاً؟ كما يقول)، وكل واحد سينال قسمته على ضوء ما اقترف من أعمال ولن يظلم فيها أحد، إذ كل شيء يتم بالعدل. عند مشارف جبل طور سينين (هناك حيث إلتقى موسى بربه) يقف صاحبنا الرحالة شاعراً بثقل أحشائه مواجهاً ربه متخلصاً من الخطيئة وطالباً رحمته.

الدعاء والرغبة الصادقة للحاج المؤمن، هي تلك الأبيات المتضرعة التي ينهي فيها حاج بوي مونثون قصيدته الشعرية الطويلة ولا شيء آخر. المجهول يغمر ما تبقى من رحلة عودته وما شاهد وما لقاه فيها.

4

ملاحق و إضافات

في هذا القسم الأخير من الكتاب جمعنا فيه ما نعتقد بإهمية إدراجه في مؤخرة الدراسة و هو نص قصيدة (إبتهالات الحاج) باللغة الإسبانية وذلك لعلاقتها المباشرة بالنص والآداب الموريسيكة، وكذلك معلومات عن المخطوط الأعجمي، كذلك صفحات مصورة من المخطوط بالحرف الأعجمي. أضفنا كذلك مقالين عن تواريخ مهمة لفهم تاريخ خروج العرب المسلمين وظروف طردهم، كذلك معلومات عن طرق الحجيج المعروفة.

ملحق رقم 1:

صفحات مصورة من المخطوط الأعجمي الأصلي

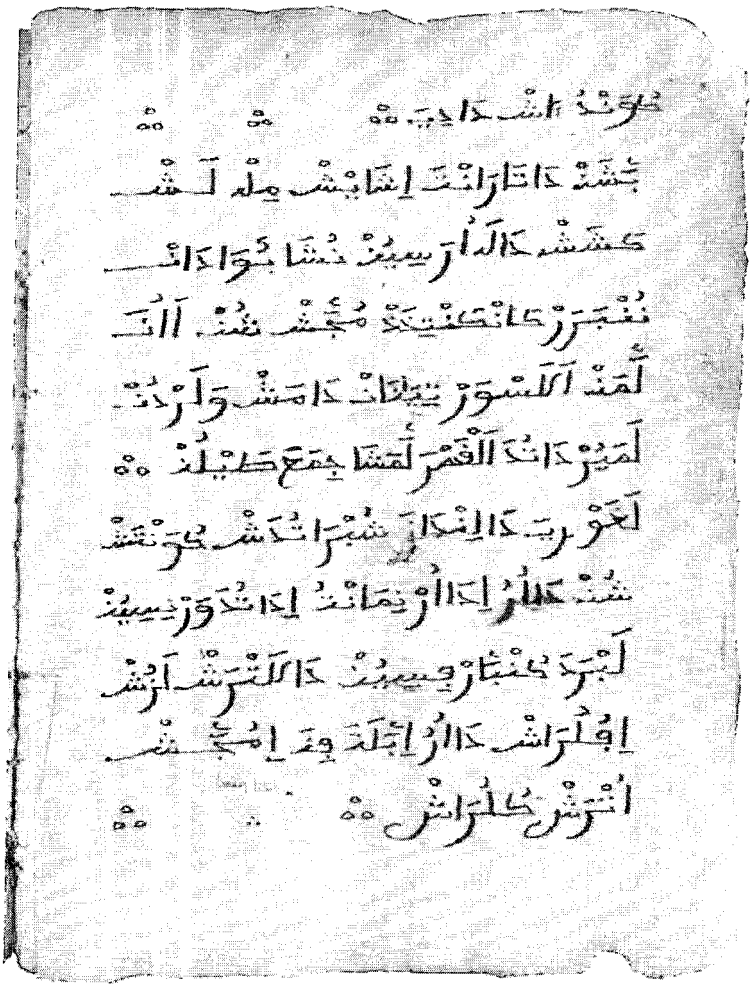

صفحة من المخطوط بالأعجمية المقاطع 26 - 27

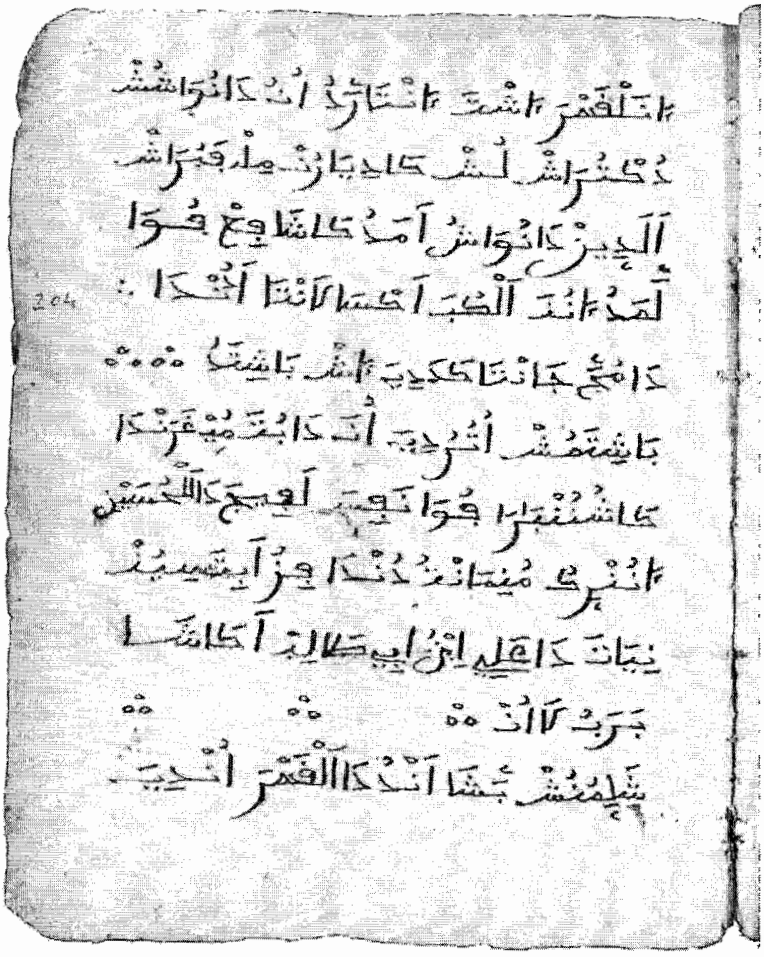

صفحة من المخطوط بالأعجمية المقاطع 28 - 29

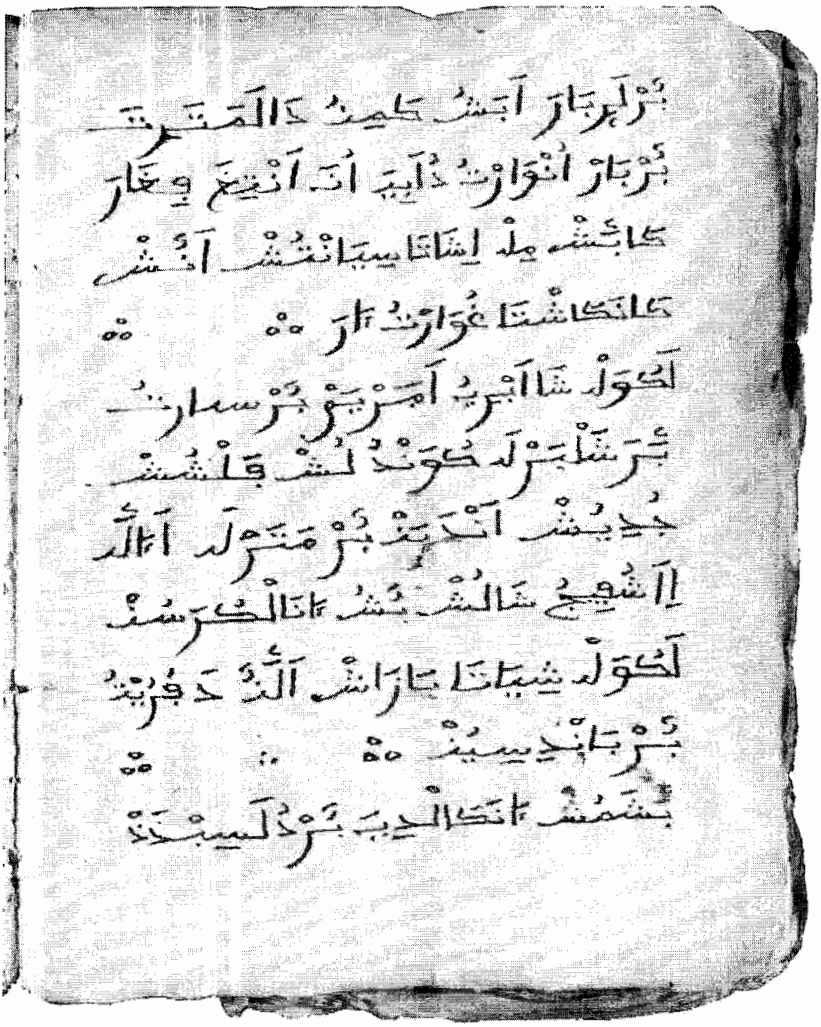

صفحة من المخطوط بالاعجمية المقاطع 30 - 32

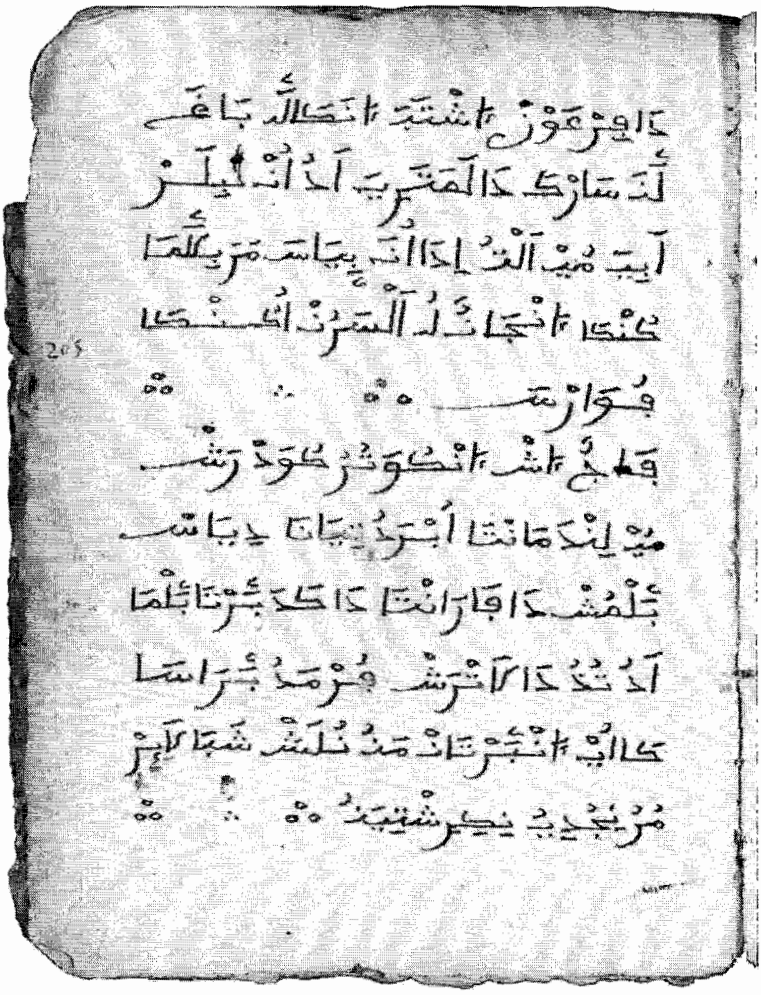

صفحة من المخطوط بالاعجمية المقاطع 33 - 34

ملحق رقم 2 :

نص القصيدة باللغة الإسبانية القديمة

(Bismi ilahi) arrahmani arrahimi

(En nombre Allah, clemente y misericordioso)

ESTAS SON LAS COPLAS
(DEL ALHICHANTE PUEY) MONZÓN

I

..... lograr

..... çon

..... para ir a la casa

..... Se gana el perdón

.....es mucha razón

Que hayamos..... aca

La casa santa de Meca

Me haga tal relación.

II

Si yo partí de mi gozo

Y de todo mi linaje,

Para ir a tierra de moros

Y hacer mi romeaje,

A cumplir aquesti alhache
Y que es un deudo prençipal
Que consume todo mal
Al que hace tal viaje.

III

Aunque mi departençia
.....

IV

Yo llegando a Valençia
No lo quise más tardar,
Luego hice mi diligençia
Y mis hechos ordenar:

Pagué al Baile General
Toda razón y dreitaje,
Y al patrón de la nau
Qu' es natural de Veneçia.

V

..... alegría
..... nombrado día
.....
..... de Túnez allende
.....

VI

.....
Çiento y sesenta mil casas

Por cuento en ella había,
Çibdad de tanta valía,
Çibdad de tanta riqueza,
Caballería y nobleza,
Que contar no se podía.

VII

Çibdad es muy deleitosa
Para el que está reposado,
Más al que tiene cuidado
Ninguna cosa le reposa:
Con nuestra ansia quexosa
Delibremos de nos partir,
Salímonos a dormir
Defuera un arrabal.

VIII

El segundo de Nadal
Partimos por aquellos valles,
Cuando por tierras,
Cuando por mares,
Por las villas y çibdades,
Peligros por la mar escura:
Ansí ribamos a Cherba,
Isla de mucha verdura.

IX

De Túnez a Hamameta
Y de allí á Hericlía,
A Çuça y al Monestir

Y la çibdad de Almahdía:
Navegamos por esa vía
Tres días de sin comer;
A otra parte la Fortuna
Bien nos pensamos perder.

X

Cuando ribamos a Saféquiz,
Con la fambre aquexados,
Y penados de la marina,
Y de la fortuna tormentados,
Trobemos tales reparos
De un dolor tan lastimero.
No trobamos bocado de pan
Por amor ni por dinero.

XI

Andando con mi compañero
Recreçentando pesares,
Y publicando nuesos males,
Trobamos un forastero:
Llevónos muy por entero
Donde había ganado mucho,
Y por siete *nasrines*
Mercamos un cordero.

XII

Pusímoslo en una olla
Sin agua ni cocinado,
Ni salsa ni aparejo,
Ni ningún otro guisado;
Así mal aparejado

Lo hubimos a cozer,
De sin pan ni otra cosa
Nos lo hubimos de comer.

XII

De allí fuemos a Mihraçra
Bonica aldea por çierto;
Allí no facimos escala,
Mas dormimos en el puerto:
Allí engolfamos, por çierto
Qu´l Raiç andaba aquexado:
D´ allí arribamos a Cherba
El puerto de lor mercado.

XIV

Isla es muy deleitosa
De muchos árboles fruitales,
Mançanos, priscos y peros,
Muchas viñas y figuerales;
Hay de muchas datileras
Que es una fruita sabrosa,
Isla es muy deleitosa,
Maguera toda arenales.

XV

Partimos con alegría
De Cherba los alhichantes
Con muchos de mercadantes

Por ir en Alixandría:
Navegando nuesa vía
Por l' alta mar tempestosa,
Tomónos mala marina,
Una muy terrible cosa.

XVI

Cuando fuemos en los golfos
De Fortuna, sin dudar,
Recreçentó la tempesta
Y ventisca por la mar:
Aquí empeçó de llamar
Ad altas voces el Patrón:
"Vacíese el galión,
Si nos podremos salvar".

XVII

Grande prisa había
En vaciar el galión:
Ni miran a mercadería,
Ni miran á guarnición:
Mucha riqueza echaron
En la mar a los mercadantes,
Y también a los alhichantes
Parte de su provisión.

XVIII

El alto rey soberano
El que nos quiso salvar,
Pues todo estaba en su mano,

Dio reposo a la mar;
Veríades humillar,
Agradeçiendo con obedençía
A la su alta acselençia,
Que nos quiso remediar.

XIX

Pasada fué la fortuna
Y el peligro y espanto,
Quedónos otra tristura
Aunqu´ el mal no era tanto,
Açaz era pro quebranto
Quedar de sin provisión.
Que la echaron en la mar
Por miedo del galión.

XX

El Raiç Çébiti llamó
A un su primo hermano,
Y tomólo de la mano
Y juramento le tomó:
"Que del biçcocho y el agua
El fuese percurador,
Lo diese partes iguales
Ansí al chico como al mayor".

XXI

Socorriéronnos por çierto,
No nos dexaron mal pasar
En todo aqueste tiempo.

Que anduvimos por la mar,
Y Alá nos quiso ayudar
Con la su merçé y albaraca,
Que arribamos a un puerto
En el reino de *Montebarca.*

XXII

En tanto los alarabes
Allí fueron arribados,
D´ellos venían a pie,
D´ellos en sus caballos;
Hicieron señal de seguro,
Alçando al cielo la mano:
Salió el Raiç Çébiti
Y Abdorrahmeno el escribano.

XXIII

El otro día de mañana
Trayeron tanto bastimento
De manteca y leche agra
Y ganados sinse cuento,
Carneros como becerros
Y muy gruesos compraron,
Y de aquella manteca y leche
Basteçieron el galión.

XXIV

Fuémonos a desembarcar,
Al diziocheno día,
En el puerto de la mar
De la çibdad de Alixandría:
De allí, tomamos la vía

Para Alcahra la famosa,
Noble y grande y poderosa,
Que contar no se podría.

XXV

Sus vecinos no han cuento,
Cuanto más las otras cosas,
Vintiçinco mil *porropias*
Se fallan por nombramiento:
Tienen tal regimiento
Qu´ es cosa de alegría,
Que tan clara está de noche
Como cuando es de día.

XXVI

Pasan de trenta y seis mil
Las casas de la oraçión
No se pueden nombrar,
Qu' en cantidad muchas son:
A una llaman Aleçuar,
Tienen de más gualardón;
La mayor de toda Alcahra
Llámase Jimaa Tailón.

XXVII

La Gauriya, de lindeza
Sobre todas cuantas son,
De oro y ornimento
Y de toda guarnición;
Labrada con perfiçión

De letras, lazos y flores,
De oro y plata fina
Y muchas otras colores.

XXVIII

En Alcahra está enterrado
Uno de nuesos doctores,
Los que dieron mil favores
Al adin de nueso amado.
Que Xafi fué llamado,
En una alcoba acçelente
A donde de mucha gente
Cada día es vesitado.

XXIX

Vesitamos otro día
Una devota muy grande
Que su nombre, fué Nafiça
La fija del *Alhoçaini,*
En un rico monumento
Donde fizo habitaçión,
Nieta de *Alí ibno Abi Tálib*
Aquese bravo león.

XXX

Salimos paseando
Del Alcahra un día,
Por la ribera abaxo

Camino de la Mataría
Por ver un huerto do había
Una antigua figuera
Que pas mil y seteçientos años
Qu´ en aqueste huerto era.

XXXI

La cual se abrió á Mariam,
Por cierto para salvarla,
Cuando los falsos Jodíos
Andaban por matarla:
A ella y á su fijo
Se los puso en el coraçón.
La cual siete veces al año
Da fruto por bendición.

XXII

Basamos en aquel día
Por do la çibdad de Firáun
En aquella vega llana
Cerca de la Mataría,
A do un pilar había
Muy alto y de una pieça;
Maravilléme con qué engeño
Lo alçaron ó con qué fuerça.

XXXIII

Fecho es en cuatro cuadras
Muy lindamente obrado,
Tiene dieç palmos de frente

De cada parte palmeado;
Todo de letras formado
Pareçe que hoy en parten mano;
No las sabe leir moro,
Ni jodío, ni cristiano.

XXXIV

De la Alcahra sale Amir
Por su gente aguardar,
Allá junto en una alberca
Sus tiendas mandó parar:
Y tres días con sus noches
A la gente atendía,
No cesaron de venir
Así noche como día.

XXXV

Veintiçinco ricos camellos
El traía de delante,
Enjoyados de ricas joyas,
Por mostrar su poder grande;
Ensillados con ricas sillas
Y cada uno encobertado,
Los unos cubiertos de seda,
Otros un fino brocado.

XXXVI

La gente que allí se llegaba
No es cosa de creer,
Pasan de cien mil personas
Y tal era mi creer:
Y la hueste de Halab

Con los sus çercanos vecinos,
Trobamos por los caminos
Mucha gente y de valer.

XXXVII

De allí se partió l´ Alhiche,
Por çierto, gran compañía
De hombres y de mujeres
Con mucha camellería;
Caminando nuestra vía
Por los montes y los valles
Y muy vivos arenales,
Así noche como día.

XXXVIII

Con trompetas y muy ordenado
Ejército de gente
Asoldadada
Por ir por los desiertos
A caballo en sus añacas, escubriendo
Van por los collados,
Y cuatro tiros de lombardas
Consigo llevaba armados.

XXXIX

Deziros he lo que ví
Por las sierras y collados,
De las tierras que pasé.
De los montes despoblados:

Ví *annabíes* enterrados,
Llenos de gran resplandor,
Que alabaron su Señor
Fueron bien aventurados.

XL

Sólo en aquestos ver
Cuerpos de tanta valía,
Consistorios de plazer
Y de doblada alegría:
En ellos no hubo *motosía*
Ni menos ningún *porfaçio*
Ansí en estrecho como en espaçio
Siempre van con mejoría.

XLI

Ansí ribamos a *Maca*
Esa bendita çibdad
Que sus puertas son *albáraca*
Y sus paredes piedad;
Sus tejados claredad
Y ella toda es bendición,
Pues cualquiere que a ella vá
Tiene ganado el perdón.

XLII

Ya salía a reçibir
El Xafí al Capitán;
Esta fué mira tan gran

Que no sería de decir:
Con trompetas y atabales
Y mucha caballería,
Tan dichoso fué aquel día
Que vimos las cosas tales.

XLIII

Salieron tan ricamente
De joyas y pedrería
Y jaheces los caballos,
Que creer no se podría:
Las galas y alaridos
Y trunfa que ellos llevaban,
Con trompetas y atabales
Que todo el mundo atronaban.

XLIV

Toda la gente se apearon
Con mucha manificencia,
Y con muy gran reverençia
Los dos juntos se abrazaron:
Homilmente se saludaron
Con cortesías y honores,
Que en sus hechos bien mostraron
Ser d´ ambos grandes señores.

XLV

Entrególe el Capitán
El camello de la cobertura,
Y él con mucha mesura

No mostrándose ufano,
Mas como hombre humano
Demostró su acselençia,
Al camello hizo obedençia
Y reçibiólo con su mano.

XLVI

De las trompetas y atabales
Resuenan montes y valles,
Atruenan los atabales
Que el hombre se esturdeçía:
Y lágrimas de alegría
Iban derramando la gente,
Fuéronse a *babo asalem*
De la casa reverente.

XLVII

Deziros he de la casa,
Que de Maca se dezía,
Y de la orden y causa
Que en esta casa había:
Casa de tanta valía,
Casa de tanta nobleza,
Oro y plata y riqueza,
Que estimar no se podría.

XLVIII

Allí están cuatro *almihrabes*
De las nuestras cuatro reglas:
Hay de ricas açomuas

Muy altas, ricas y bellas,
Y cuanto las cuatro d´ ellas
De nuestros cuatro doctores
A la casa dan mil favores.
Cosas son de maravillas.

XLIX

La quinta, qu´ es la postrera,
Que donde *Zenzén* estaba,
Esta era la primera
Que al *asala* llamaba:
El que de aquesta curaba,
Las cosas qu´ en ella fazía
De ataçbihes que dezía,
La gente se maravillaba.

L

El *alcaaba* y *alharam*
Estaban al escubierto,
A una parte más gran
De aquesta casa por çierto,
Salvo un rico cubierto.
Que alrededor tenía
Con seteçientos pilares.
Que las cubiertas sostenía.

LI

Novecientas simias lámpedas
Qu´ osta casa alumbraban,
Con cuales toda la noche

La gente en ella velaban;
Y jamás nunca cesaban
De hacer su petiçión,
Rogando al rey del çielo
Les otorgase perdón.

LII

Aquesta casa preciosa
Está en medio la çibdad,
Guarnida de ricas puertas
Y muchas por cada parte
Treinta y nueve en la verdad
Son las puertas çiertamente
Por las cuales a rodear
Entra y sale la gente.

LIII

Diros he de la alcaaba
Y de su tanta nobleza,
Oro y plata y riqueza,
Que no se le falla cuenta:
Tiene rica vestimenta
De seda adamasquina,
Y chapada de plata fina
Muy rica tiene la puerta.

LIV

Diros he de la *açala*
Como estaba ordenado
Cada orden con su gente

La facían por su grado:
Devantan el açala
Junto con el Almakem
Así unos empués de otros
Aprés de dado assalem.

LV

El uno face *açala*
Con la gente que tenía,
Los otros esperan vez
Así como les venía.
Safi es el mayor
Y *Abohanifa* el doseno,
Empués *Málic* doctor
Y Hambalí es el postrero.

LVI

La *Alchomoa*, día mayor,
La açala del mediodía
Safi ese doctor
Es el que l´ açala facía:
Con la espada en la mano
Y alzados los sus pendones
Y puestos en derredor
Y juntas las cuatro ordenes.

LVII

Safi hace l´ açala
Como a parte de poniente
Y Abohanifa a la medio

Como la hora se amana:
Y Málic nueso doctor
Como a parte de saliente
Y Hambalí, ese doctor
A parte de la trasmontana.

LVIII

Quien más quisiere escribir
No lo podría acabar
Ni de palabra dezir,
No lo podría contar;
Casa tan singular,
Las cosas qu´ están en ella,
Noble, grande, rica y bella.
Qu´ en el mundo no hay su par.

LIX

Allí vesité l´ *alcaaba*,
Si me facía *alharem*,
Vesité la piedra negra
Del rencón y l´ *almaquem*
Y el pozo de *Zemzem*;
Aquella agua verdadera.
Que de las faltas y olvidos
Ella es alimpiadera.

LX

Vesité de muy buen grado,
Quísolo mi buena dicha,
La mujer de nueso amado

Que su nombre fue Hadicha.
De Huáyalad era fija,
Ensalçóla el poderoso,
En una muy rica alcoba
Enterrada en gran reposo.

LXI

Ví do se prencipió el açala
Y do se hizo el primer pregüén,
En una parte de la çibdad
Que se llama Hayazén;
Y ví la casa del anabí,
Qu´ es una casa real,
Y la casa de Hadicha,
De su mujer la prencipal.

LXII

Y la casa de Bubacri
Caballero afamado,
Y la casa de Alí
Ese barragán probado;
Y más ví la propia muela
Con que Fátima molía,
Cosa que tanto consuela
Y da crecida alegría.

LXIII

Vesitamos muchas montañas
Y de tanta prevenençia
Y el monte de *Abicubayça*

Do la luna hizo obedençia,
Y *aharé* otra montaña
De tanta consolaçión
Donde limpiaron la saña
Al Annabí, del corazón.

LXIV

Y a Sura donde se retrayeron
L´ Annabí y sus compañeros,
El día que los persiguieron
Los enemigos fariseos:
Fuéronse a una peña hueca,
Qu´ es de una piedra cristal;
Allí junto está el pedaço
Que Chibril en fué a cortar.

LXV

Y en el monte de *Arafa*
Do las huestes se presentaron,
Donde *Adam* y *Hava*
Nuestros padres se juntaron,
Cuando por los pecados
De la *Alchana* fueron salidos;
En este mismo monte
Hubieron fijas y fijos.

LXVI

Y en el monte de *Mina*
Y en aquel mismo lugar
Donde *Ibrahim* a su fijo

Lo tenía para degollar:
Y en aquellos mismos lugares
Do les salió el enemigo
A *Ismail* por tentar
Y a su padre Ibrahim, el amigo.

LXVII

Y pasamos por el val
A donde fueron destruidos
Las compañas del *alfil*
Porque fueron descreídos.
Mandó Alá a unas avecillas
Pedrearlos por maldición.
Donde el annabí *Edriç*
Dende allí subió al çielo.

LXVIII

Diros he de la *Almedina*
De nueso Annabí honrado,
Con su hestoria de alegría,
En su Meçquida enterrado,
A donde está acompañado
De dos preciosos cuerpos,
Acompañáronlo en vida
Acompáñanlo de muerto.

LXIX

Allí al cabo del destrado,
Dentro de su rejadura,

Abubácri está con él
Y *Omar* el de la mesura,
Que Alá el de la altura
Se les dió por gran favor
Y al *adín* por resplandor
Fueron de buena ventura.

LXX

A los piedes del Annabí
Allí está la mejorada
Fátima mujer de *Alí*,
En gloria soterrada,
Fija esclareficada
Del Annabí singular,
A la cual debemos rogar
Que sea nuesa abogada.

LXXI

Allí en su compañía,
Salvo fuera del rejado,
Más dentro en la meçquida,
Muy ricamente enterrado
Aquel cuerpo emperlado
De Málic, nueso doctor,
Acá y en todo el Algarbe
A él tenemos por mayor.

LXXII

A cuanto Ibrahim el inomante
De fuera está enterrado,
El fijo del acçelente
De nuestro Annabi honrado:

Que Alá se le hubo dado
Más blanco que un armiño
Aunque murió chico y niño
Fué muy bienaventurado.

LXXIII

Deciros he más que ví,
Cosa de tanto consuelo;
Ví la luz del Annabi,
Que subía hasta el cielo.
Allí todos sin recelo
Dando voces de alabanza,
Demandando perdonanza
Para el día del gran duelo.

LXXIV

Muchos lugares santos,
Visitamos y de *albáraca*
En el *Almedina* y en *Maca*,
Por montes y collados,
A donde en tiempos pasados
Se mostró mucha maravilla
De consuelo, sin mancilla
Esto asi lo fallamos.

LXXV

Cuanto partí caminero
De la tierra de bendición,
Quebrantóse mi corazón,

Sábelo Alá el verdadero;
Partiendo del Mensajero
Recreçentó mi fortuna,
Que muero y vivo a una
D´ este dolor lastimero.

LXXVI

Pesóme no ir ad Alcodos
Digo a la Casa Santa,
Casa que toda es luz
Y bendición y gracia tanta
Que todo el mundo amanta,
Tanta es su perfición,
La cual moros y cristianos
Van a ella por gran perdón.

LXXVII

Y más que allí está el val
A donde, según leemos.
Qu´ allí todos con gran mal
Juntamente nos veremos;
Donde todos lloraremos
Nuestras faltas y errores,
Los que Alá no serviremos,
¿Qué haremos pecadores?

LXXVIII

Allí hombres y mujeres
Todos seremos juntados,
De las obras que haremos
Muy bien seremos pagados,

No nadi perjudicados,
Sino por justa razón,
Según haremos las obras
Así habremos el gualardón.

LXXIX

Más fué al pie de la montaña
Nombrada *Toriciné*
Que me pesó en las entrañas
Porque arriba no puyé:
Allí donde *Muçé*
Con Alá tuvo razón:
Si en estas dexar pequé,
Por ello ad Alá pido perdón.

ملحق رقم 3 :

معلومات تاريخية منذ سقوط غرناطة حتى طرد الموريسكيين[73]

[73] مستلة من مقال (أ. د. ناصر أحمد سنه: الموريسكيون: بين حق الاعتذار، وحق العودة.).

♦ 1492 يناير/ كانون الثاني: السلطان أبو عبدالله الصغير يسلم مفاتيح غرناطة، واضعًا بذلك نهاية للحكم الإسلامي في الأندلس الذي دامَ سبعمائة وإحدى وثمانين سنة.

♦ 30 مارس/ آذار: الملكان الكاثوليكيان يُوقِّعان على قرار طرْد كلِّ اليهود من إسبانيا.

♦ 1499 إقامة فرع لمحاكم التفتيش في غرناطة.

♦ الكاردينال فرانثيسكو خيمينيس دي ثيسنيروس يأمُر بإغلاق المساجد.

♦ الشُّروع في التنصير الجماعي للمسلمين.

♦ 18 ديسمبر/ كانون الأول: اندِلاع انتِفاضةٍ في حي البيازين في غرناطة احتجاجًا على حملة التنصير.

♦ 1500 يناير/ كانون الثاني: الانتفاضة تمتدُّ إلى جبال البشرات بقيادة إبراهيم بن أميَّة، لتستمر ثلاثة أشهر.

♦في أواخر هذه السنة ستندَلِع انتفاضة أخرى حول بلدة بلفيق ووادي المنصورة بمنطقة ألمرية.

♦ 1501 يناير/ كانون الثاني: إخماد انتِفاضة بلفيق واندلاع بؤرة أخرى في مرتفعات رندة.

♦ مايو/ أيار: إخماد انتفاضة رندة بعد تدخُّل الملك فرناندو على إثر مقتل أحد قوَّاد جيشه الدون ألونسو دي أغيلار.

♦ بمشورةٍ من الكاردينال ثيسنيروس، الملكة إيسابيل تأمُر المسلمين باعتِناق النصرانيةأو مغادرة البلاد، لكنَّها ستفرض على الراغِبين في الرحيل إتاوات

وغرامات فادحة، وستطلبُ منهم التخلّي عن أطفالهم الصغار؛ ممَّا سيؤدِّي بالكثير إلى الدخول في الدين النصراني.

♦ 12 أكتوبر / تشرين الأول: عددٌ هائل من الكتب العربيَّة يتعرَّض للحرْق في غرناطة بأمر ملكي.

بتنصيرهم أصبح الموريسكيون خاضعين لمحاكم التفتيش.

♦ 1502: بدعمٍ من الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا، الملكان إيسابيل وفرناندو يحظران رسميًّا ممارسة شعائر الدين الإسلامي في مجموع ممالك وأقاليم إسبانيا.

♦ 1503: النُّبَلاء في مملكة أراغون يُطالِبون بحماية مَوالِيهم من المسلمين ("المدجنين" أو الموديخار).

♦ 1504 20 نوفمبر/ تشرين الثاني: وفاة الملكة إيسابيل.

♦ 1505: إسبانيا تستولي على بلدة مرس الكبير على ساحل البحر شمالي الجزائر.

♦ 1509: ثيسنيروس يُشارك في الحملة التي انتهَتْ باحتلال وهران، لكنَّه يبتعد عن الميدان السياسي بعد خلافٍ دبَّ بينه وبين الملك فرناندو أراغون.

♦ 1510: بداية حملة حظْر العادات الإسلاميَّة.

♦ 1516: وفاة فرناندو ملك أراغون.

♦ حفيده شارل دوق برغندي (كارلوس الأول أو الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) يستلِم الحكم إلى جانب والدته المعروفة بخوانا الحمقاء.

♦ 1517: العثمانيون يستولون على مصر.

♦ 1520 - 1521: المتمرِّدون المنضوون تحت لواء طائفة تُدعَى "خرمانياس" يبدؤون حملة تنصيرٍ قسرية للمسلمين في مملكة بلنسيه التابعة للتاج الإسباني.

♦ 1525: السلطات الدينيَّة ترى أنَّ اعتناق المسيحية قسرًا لا يبطله.

♦ 1526: شارل الخامس يأمُر بتطبيق قرار "التنصر أو الهجرة" على مسلمي جميع ممالك إسبانيا.

♦ حظر جميع عادات الموريسكيين.

♦ اندلاع حركات تمرُّد في بني الوزير وفي جبال اشبدان وفي لامويلا دي كورطس غربي وسط المملكة.

♦ 1556: فيليبي الثاني يخلف والده المتنحِّي عن عرش إسبانيا.

♦ 1566: مرسوم ملكي جديد لمكافحة العادات "الموريسكية".

♦ 1568 - 24 ديسمبر/ كانون الأول: اندِلاع ما سيُعرَف بحرب غرناطة.

♦ 1570 يونيو/ حزيران: نهاية الحرب وإجلاء حوالي 100 ألف من موريسكيي غرناطة إلى داخل إسبانيا.

♦ 1568 - 1570: حرب غرناطة الأهلية كانت الفصل ما قبل الأخير في مأساة الموريسكيين.

♦ 1580: اكتشاف ضلوع موريسكيين بإشبيلية في محاولة إنزال متطوِّعين من شمال إفريقيا عند مصبِّ الوادي الكبير.

♦ 1582: الكشف عن ضلوع موريسكيين في "مؤامرة" أخرى للحصول على دعْم الجزائر.

♦ 1598: فيليبي الثالث يعتَلِي العرش الإسباني بعد وفاة والده.

♦ 1609: أبريل/ نيسان انعقاد مجلسي الدولة والحرب حيث سيتقرَّر طرْد الموريسكيين من كلِّ إسبانيا.

♦ أبريل/ نيسان: الملك يُوَقِّع على قرار الطرْد، التوقيع على هدنةٍ مع ثوَّار الأقاليم المتَّحِدة (فلاندريا أو هولندا) البروتستانت بعد صراع مع القوَّات الإسبانيَّة المحتلَّة دامَ بضعة عقود.

♦ 22 سبتمبر/ أيلول: إعلان النداء الملكي في بلنسيه.

♦ 2 أكتوبر/ تشرين الأول: إبحار أوَّل دفعة من الموريسكيين إلى وهران.
وصول الموريسكيين إلى مرفأ وهران.

♦ 20 أكتوبر/ تشرين الأول: اندِلاع انتفاضة بمنطقة لامويلا دي كورطس وسط غربي مملكة بلنسيه.

♦ 23 أكتوبر/ تشرين الأول: اندِلاع انتفاضةٍ أخرى في منطقة الأغوار جنوب شرقي المملكة.

♦ 25 نوفمبر/ تشرين الثاني: قمْع الانتفاضتين.

♦ 10 ديسمبر/ كانون الأول: صدور مرسوم طرْد موريسكيي مرسية.

♦ 12 ديسمبر/ كانون الأول: نهاية عمليَّات تهجير موريسكيي بلنسيه رسميًّا.

♦ 1610 - 1614 تهجير موريسكيي باقي ممالك وأقاليم إسبانيا.

♦ 1614 فبراير/ شباط: السلطات تُعلِن انتهاءَ عمليَّة التهجير بعد طرْد موريسكيي وادي رقوتة بلامانتشا.

ملحق رقم 4:

فكرة عن طرق الحج المعروفة وأمنها

يعد أمن الطريق يشكل أحد العناصر الهامة في تدفق أعداد الحجاج الذين يفدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ويرتبط بمفهوم أمن الطريق أن يكون وصول الحجاج من بلادهم إلى الأراضي المقدسة وعودتهم منها إلى ديارهم أمراً سهلاً، ولكن إذا اضطربت الأحوال في جزء من الطريق الواصل بين مواطن الحجاج والأراضي المقدسة، أو إذا تعطل الأمن بسبب أي نزاع أو حرب في الديار المقدسة ذاتها أو بقربها بما يحول دون الوصول إلى منطقة شعائر الحج باطمئنان، وبمعنى آخر، إذا نشبت حروب محلية أو عالمية، فإن ذلك يعطل مسيرة الحج ويهدد طريقه، وقد شهدت عصور وأعوام كثيرة مثل تلك الأحوال التي ترتب عليها تعطيل الحج من بعض الجهات أو من معظم الأنحاء حيناً آخر [74].

وكانت قوافل الحجاج من كل قطر تخضع لنظام يكفل لها الأمن، بأن تكون في حراسة، وأن يقوم بالأمر مسؤول كبير عن حفظ الأمن والنظام طوال مراحل سفر القافلة ثم في أثناء إقامتها بمنطقة المشاعر المقدسة ثم في العودة إلى الأوطان، وكان ذلك المسؤول يعين من قبل الحاكم أو السلطان في كل قطر إسلامي، وكان يحمل صفة "أمير الحج"، وحلت محل ذلك في العصر الحديث صفة "رئيس بعثة الحج"، ويحدثنا الحسن بن محمد الوزان عن أمير الحج المصري في مطلع القرن السادس عشر الميلادي فيقول:

---

[74] أحمد علي إسماعيل: طرق الحج، دراسة جغرافية، منشورات إيسيسكو (إنترنيت).

"كانت هذه الوظيفة تمثل منصباً عالياً ومهمة ثقيلة، وكان السلطان يعهد بها لأغنى مملوك وأكثرهم أهلية لديه، وكان هذا الشخص يقود قافلة الحج التي تذهب من القاهرة مرة في العام إلى مكة، وهو لا يستطيع أن يقوم بتنفيذ هذه المهمة بدون نفقات ضخمة إذا أراد أن يقوم بهذه المهمة بأبهة ويسر، وكان يصحب معه الكثير من المماليك الآخرين لحراسة القافلة، وكانت الرحلة تدوم ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً، ولا يمكن وصف شدة المصاعب ولا كثرة النفقات التي كانت تقع على هذا القائد، وذلك بدون تعويض من السلطان ولا أهل القافلة".[75] وفي حاشية العمل أن القافلة التي اتجهت إلى مكة في عام 1512م، كانت بقيادة الأمير الكبير وهو ابن عم السلطان مع مائتي مملوك كانت تضم ما بين مائة ومائة وعشرين ألف جمل، وذلك طبقاً لرواية جان تينو **J. Thenaud** وهو أحد الأخوة الفرنسيسكان".[76]

وتجدر الإشارة إلى أن أمن الطريق كان يمثل مشكلة كبيرة أمام قوافل الحجاج، وذلك لسيطرة البدو الخارجين عن القانون والذين ظلت الطرق الموصلة إلى المنطقة المقدسة عرضة لنفوذهم وامتد ذلك خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بل وحتى مطلع القرن العشرين . ففي القرن

---

[75] الحسن بن محمد الوزان الزياني (ليون الإفريقي) وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة ومراجعة علي عبد الواحد وافي، كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1399 هـ، ص 607 .

[76] أحمد علي إسماعيل، العالم الإسلامي، دراسات جغرافية في الجوانب الحضارية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999.

الثامن عشر تحدثنا الأخبار المنقولة عن "الجبرتي" أن قوافل الحج المصري، والحجاج المغاربة وقوافل حجاج الشام قد تعطلت أو تعرضت للسطو من جماعات البدو في أعوام 1194 هـ (1780م) و1199 هـ (1784) ثم في عام1201 هـ (1786م) وفي 1213 هـ (1799م)، ففي عام 1780م "وقف العربان لهم في الصفراء - بين المدينة وبدر - وحاربوهم نحو عشر ساعات ومات كثير من الناس والغز والأجناد، ونهبت بضائع وأحمال كثيرة، وكذلك من الجمال والدواب، والعرب بأعلى الجبال، والحج أسفل، كل ذلك والحج سائر". وقد حدث الأمر نفسه في عام 1784م حيث لقي الحجاج مشقة عظيمة من الغلاء وبسبب عادة "العربان" في الإغارة على القوافل، أما ما حدث للحجاج المغاربة فكان بالغ الخطورة، حيث وقفت العربان للحجاج المغاربة في سطع العقبة وحاصروهم هناك ونهبوهم وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا نحو عشرة أفراد".[77]

طريق الحج المصري :

وكان من أهم طرق الحج نظراً لأنه يجمع إلى جانب حجاج مصر أولئك الوافدين للحج عن طريق شمال إفريقيا أو المغرب العربي، وكان هذا الطريق يسلك أحد مسارين، يمتد أولهما من القاهرة شرقاً حتى السويس ثم عبر سيناء الوسطى إلى نخل فالعقبة على رأس الخليج، ثم يسير

---

[77] أنظر: محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1975

محاذياً للساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى يصل إلى مكة المكرمة، وأما المسار الثاني فكان يأخذ اتجاهاً إلى الجنوب ملتزماً نهر النيل من القاهرة حتى قوص إلى الجنوب من جهة ثنية قنا وبعد ذلك يتوجه عبر الصحراء الشرقية في اتجاه إلى الجنوب الشرقي ملتزماً بعض الدروب والأودية الصحراوية حتى يصل إلى عيذاب قرب الحدود المصرية السودانية الحالية، وعندها يعبر طريق البحر الأحمر وصولاً إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة وكان طول المسار الأول يصل إلى حوالي 1500 كم وطول المسار الثاني بين القاهرة وعيذاب حوالي 1200 كلم، وكانت الرحلة تستغرق ما بين شهر وأربعين يوماً على أي من المسارين، في الأول حتى مكة المكرمة وفي الثاني حتى عيذاب قبل عبور البحر الأحمر(28).

أما إذا استخدمت وسائل نقل سريعة من الخيل أو الإبل فقد يتم قطع الطريق في أحد عشر يوماً في المسار الأول من بركة الحاج إلى مكة المكرمة.

ويلاحظ أن المسار الأول، الذي يمثل طريقاً برياً كلية، استمر طالما توافر أمن الطريق، ثم أدى الاحتلال الصليبي لبلاد الشام إلى تهديد استمراره، وعاد استخدامه بعد زوال الخطر الصليبي، وكانت آخر الرحلات التي سلكته في عام (1883م) حيث كانت آخر قوافل الإبل وعليها 1170 حاجاً، أما المسار الثاني فقد كان أكثر استخداماً وقد استخدمه كل من ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة في رحلاتهم للحج.

بدءاً من القرن الثامن عشر أصبح الطريق البحري بين السويس وجدة حل محل الطريق البري، وانتظمت قوافل الحجاج التي تسافر بالسفن، وفي القرن الثامن عشر كانت بعض السفن تحمل ما بين 500 إلى 600 من الركاب ويعمل عليها أكثر من 70 من الملاحين.

تأثرت وسائل نقل الحجاج بثورة النقل ووسائله، وإذا كانت طرق الحج وقوافله القديمة كانت تتم بالطريق البري، ثم ظهرت الطرق البحرية على استحياء، وزادت حمولة السفن، وقدرتها على سرعة السير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حتى أصبحت وسائل النقل البحري تنقل أكبر نسبة من الحجاج، ثم ما لبثت الطائرات ووسائل النقل الجوي أن شاركت في ذلك خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

يلاحظ أن رحلات الطرق البرية أو البحرية كانت تستغرق مدة طويلة لا تقل عن الشهر وقد تصل إلى ستة أشهر (عدا حالات طريق السودان الغربي) وكان من شأن طول الرحلة أن يحدث آثاراً اجتماعية وثقافية، ذلك أن بقاء الحجاج معاً لفترات طويلة يوجد نوعاً من الألفة والحديث عن الأهل مما قد يسفر عن صداقات ممتدة وقد يؤدي إلى تزاور بين أبناء الوطن لدى عودتهم مما قد يمكن من علاقات أقوى.

نبذة مختصرة عن الباحث المترجم

عبدالهادي سعدون

كاتب عراقي مقيم في أسبانيا منذ عام 1993.

ولد سنة 1968 في بغداد.

باحث ومترجم مختص باللغة والأدب الأسباني (عضو جمعية المتأسبنين الدولية AHÍ). أستاذ متخصص في مادة الأدب الإسباني الحديث.. صاحب ومدير دار النشر (آلفالفا ALFALFA) للأصدارات الأدبية والفكرية باللغة الإسبانية، التي بدأت نشاطها الثقافي بداية عام2006.

حاز مؤخراً على جائزة الإبداع الأدبي الشعرية، جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية، إسبانيا، 2009 عن ديوانه الشعري (دائماً).

له العديد من الإصدارات الأدبية من بينها:(اليوم يرتدي بدلة ملطخة بالأحمر) قصص، دمشق 1996، (كنوز غرناطة) رواية للأطفال، الإمارات 1997، (تأطير الضحك) شعر (بالعربية والإسبانية)، إسبانيا 1998، (ليس سوى ريح) شعر، إسبانيا 2000، (إنتحالات عائلة) قصص، الأردن 2002، (عصفور الفم) شعر، مدريد،2006، (الكتابة بالمسمارية) شعر، كاراكاس (باللغة الأسبانية)، 2006، دائماً (شعر بالإسبانية) 2010. كتب و أخرج فيلمه القصير الأول بعنوان (مقبرة) عام 2006.

تُرجم العديد من نصوصه ونشر في كتب و مجلات و دوريات مختلفة إلى اللغات التالية: الإسبانية،الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية،الرومانية، الفارسية،الكردية، التركية، الكاتلانية، الغاليثية، الإيطالية، المقدونية، الصربية، الصينية وغيرها.

في الترجمة من الإسبانية للعربية، نقل أعمالاً أدبية مختلفة لأسماء معروفة مثل: بورخس، أوكتافيو باث، أنطونيو ماتشادو، لوركا، ألبرتي، خمينث، الكساندري، خوسي إيبرو، بيلا - ماتاس.